انفجار

رواية

رانية مرجية

2025

رواية

الانفجار

رانية مرجية

الإهداء

إلى غزة...

إلى المدينة التي تعلّمنا أن الحياة تُزرع حتى في الرماد،

إلى البحر الذي احتفظ بأسرارها، والمآذن التي رفعت صوتها رغم الدمار،

إلى الزيتون الذي بقي شاهدًا على صمودها،

إلى الأمهات اللواتي صرن أعمدة من نور،

وإلى الأطفال الذين ضحكوا رغم الركام.

إلى كل من فقد بيتًا أو عزيزًا،

إلى كل قلبٍ عاش تحت الحصار، ولم يفقد إيمانه بالغد.

هذه الرواية لكم... ومنكم... وعنكم.

ولأنكم الحياة التي لا تُقصف، فهي تبقى مفتوحة بكم وإليكم.

المقدمة

ليست هذه الصفحات حكاية من الخيال، بل صدى لأصواتٍ حقيقية وقلوبٍ تنبض تحت الركام.

هي رواية عن مدينةٍ محاصرة، لكنّها لم تستسلم؛ عن بشرٍ يعيشون على هامش العالم، لكنهم يصنعون حياةً من قلب الموت.

الانفجار ليست فقط قصة دمار، بل أيضًا قصة ولادة. في كل بيتٍ مهدّم هناك ذاكرة تنبض، في كل خيمةٍ هناك حلم معلّق، وفي كل ضحكة طفلٍ يعلو صوت حياة يتحدّى الفناء.

هذه الحكاية لا تبحث عن نهايات سعيدة جاهزة، بل عن لحظات صدق: حين ترفع أمّ يديها للسماء وهي تفقد ابنها، حين يبتسم طفل رغم الجوع، حين يكتب شاب على جدارٍ مهدّم: "سنعود."

غزة هنا ليست جغرافيا فقط، بل روحًا تقف في وجه العالم، تقول:

"قد يُهدم البيت، لكن لا يُهدم القلب... وقد يُطفأ الضوء، لكن لا تنطفئ الروح."

إلى كل قارئٍ يحمل هذه الرواية بين يديه:

اعلم أن ما ستقرؤه ليس مجرد كلمات، بل شهادات حياة. وكل كلمة هنا وُلدت من رماد، لكنها اختارت أن تكتب نورًا.

الفصل الأول: الليل الهادئ

يهبط الليل على غزة ببطءٍ يشبه حذَرَ أمٍّ توقظ طفلها إلى مدرسة بعيدة. يتأخر قليلًا على العتبات، يتفقد النوافذ المكسورة، يسوي الشقوق في الجدران بسكونٍ رقيق، ثم يفرش ستاره فوق الأزقة الضيقة والمنازل المتلاصقة كقلبٍ واحد. من جهة البحر، يأتي النسيم محملًا بملحٍ طازج، يطرق الأبواب بأصابع باردة، ويترك على الشفاه طعمًا بين العذوبة والمرارة.

في بيتٍ صغيرٍ من حجرٍ قديم، تقف أمينة عند الموقد. وعاءٌ من العدس يغلي على نارٍ خفيفة، يعلو بخاره ويهبط كأنّه يتنفس. تحرّك الملعقة بخشبٍ ملساء ورثتها عن أمها، وتلقي نظرةً إلى الغرفة المجاورة حيث ينام آدم، ابنها الأصغر، على فراشٍ بسيط، يحتضن دميةً صنعتها له من قماشٍ مهترئ وقميصٍ قديم. يلتفّ حوله الغطاء مثل موجةٍ ساكنة. فوق الوسادة، كتابٌ مدرسي مفتوح على نصف درسٍ في الحساب، أسئلة بلا إجابة مؤجلة إلى صباحٍ قد لا يأتي في موعده.

على السطح، يجلس يوسف، الجدّ، على كرسيٍّ من قصبٍ متعبٍ مثله. يحدّق في السماء التي تشبه صفحةً غامقة من دفترٍ بعيد. النجوم قليلة الليلة، لكنها حاضرة بما يكفي كي يطمئن أن السماء لم تُطفأ. يمدّ يده إلى جيبه يسحب مسبحته، يتلو ما يحفظ من أدعيةٍ قديمة، ويبتسم حين يلامس الهواء وجهه، كأنه يصافح الراحلين الذين كانوا يقاسمونه هذا السطح: أبوه الذي علّمه أسماء النجوم، وأخوه الذي ترك مقعده خاليًا على شفير الحرب، وجارهم الذي كان يضحك بصوتٍ عالٍ حتى في أيام الحصار.

أمينة ترفع الغطاء عن القدر وتذوق. "بحاجة إلى رشة ملحٍ أخرى"، تهمس. تضع حفنةً صغيرة، ثم تطفئ النار، وتغطيه. تمسح جبينها بطرف المنديل، وتدير زرّ الراديو حتى تلتقط موجةً لا تئنّ. موسيقى قديمة تصل من بعيد، عبد الوهاب يغنّي بصوتٍ يلمع مثل رصيفٍ مبلل. تتوقف أمينة لحظةً، ترفع الصوت قليلًا، وتبتسم. "ما زالت الدنيا قادرة على شيءٍ جميل"، تقول لنفسها كمن يذكّر قلبه بوظيفته الأولى: أن يحبّ.

في الحيّ، يتقاسم الجيران المساء كأنّه خبز. على الدرج المؤدي إلى البيت، تتكئ ليان، ابنة الجار، على الحاجز الإسمنتي، وتحمل بين يديها دفترًا أزرق. تكتب ببطء، تمحو، تعيد الكتابة. أحيانًا، ترسم عيونًا واسعة فوق السطور، وأحيانًا ترسم موجة، أو نافذة مفتوحة على فراغٍ أبيض. تحلم ليان أن تصبح طبيبة، وتكتب أسماء العظام والمفاصل كأنها ترسم خريطةً لجسدٍ واحد هو المدينة. الحرف عندها إسعاف، والجملة ضماد، والفقرة سرير في غرفة إنعاش. حين تسمع موسيقى الراديو من بيت أمينة، تبتسم وتردد مع المغني: "هان الودّ".

أصواتُ الأطفال تتناقص في الأزقة. الكرة المصنوعة من أقمشةٍ قديمة تتوقف عند بابٍ معدني، ويعود الصغار إلى بيوتهم واحدًا تلو الآخر. تُطفأ مصابيح وتُترك أخرى لتقف حارسًا على مداخل البيوت. بعيدًا، عند الشاطئ، يحاول الصيادون أن يدفعوا قواربهم قليلًا إلى الماء. البحر هادئ الليلة، لكنه متقلب المزاج، مثل مسؤولٍ غامض. يشتكون بصوتٍ منخفض: "الشباك قليلة، والبحر صعب، والليل طويل". ومع ذلك، يخرجون. لا يعرف الصيادون كيف يعودون بلا شيء إلى أولادٍ ينتظرون السمك مثلما ينتظر الأطفال عطلة العيد.

في الممرّ بين المطبخ وغرفة النوم، صورةٌ بالأبيض والأسود لزفاف أمينة. الفستان بسيط، والطرحة قصيرة، وفي الخلفية يظهر وجه يوسف أصغر سنًا، لكنه بنفس العينين: عيون من رأى كثيرًا ولم يملّ من الحكي. تمرّ أمينة بالصورة وتمسح الغبار عنها بإصبعها، ثم تتنهّد بلا صوت. "يا أيام"، تقول وتكمل طريقها.

آدم يتحرك في فراشه، يهمهم بكلماتٍ مبهمة، ثم يفتح عينيه نصف فتحة، يسأل:

— ماما، خلصتِ الطبخة؟

— خلصت، وبتشهي كمان. ارجع نام، بكرة عندك مدرسة.

— طيب... وإذا ما صحّيتني الطيارة؟

تتجمد ابتسامة أمينة لحظة، ثم تستعيدها:

— الطيارات تنام بدري اليوم، وغزة عندها شفعاء كثير. نام يا روحي.

— طيب... ماما؟

— نعم؟

— أنا حلمت إن البحر كنا إلنا. كله إلنا.

— البحر إلنا يا آدم. البحر ما بيبيع نفسه لحدا.

— طيب... تصبحين على خير.

— وإنت بخير يا قمر.

تقترب أمينة من النافذة، تزيح الستارة قليلًا، تتفقد السماء والشارع. الحيّ يعرف نفسه في الليل: رائحة خبزٍ متأخر من فرنٍ قريب، مواء قطة تبحث عن دفء، خطوات شرطيٍّ يمرّ كظلّ ويرحل، سعال عجوزٍ يذكّر قلبه أنه ما زال يعمل. كل شيءٍ في مكانه، كل شيءٍ في انتظاره.

يوسف على السطح يشعر ببرودةٍ خفيفة في أطرافه، فينهض ببطء وينحني فوق الحافة يطلّ على الأزقة. يرى ليان على الدرج تكتب، فيناديها بصوته المطمئن:

— يا ليان...

ترفع رأسها، تلوح له بيدها:

— نعم يا عمّ يوسف؟

— شو بتكتبي؟

— واجب الجامعة... قصة قصيرة.

— عن شو؟

— عن الليل.

— الليل طويل؟

— الليل طويل بس... كلّ ما كان طويل، بصير الصبح أحلى.

يهزّ يوسف رأسه إعجابًا، ويضحك بخفة. يهمّ أن يردّ، لكنه يصمت، كمن اكتفى من الحكمة بجرعةٍ تكفيه حتى الغد.

تطرق أمينة باب السطح وتخرج:

— يا حاج، انزل تتعشّى.

— جاي، جاي... بس خليني آخد نفسين من الهوا.

— الهوا موجود تحت كمان. والعدس بيبرد.

ينزل يوسف السلالم ببطء، تتحسس يدُه الدرابزين الخشن. يمرّ بجانب ليان، يربّت على كتفها:

— الله يوفقك يا بنتي.

— الله يخليك، عمّي.

يدخل البيت، يستقبل البخار وجهه مثل مصافحةٍ دافئة. يجلس إلى الطاولة الصغيرة، يسكب لنفسه قليلًا من العدس، يقطع الخبز، يغمّس. يقول وهو يرفع اللقمة:

— الحمد لله.

ترد أمينة:

— دائمًا وأبدًا.

في الركن، الراديو يهمس بالأخبار الأخيرة. مذيعٌ بنبرةٍ محايدة يقرأ نمطًا بات مألوفًا لدرجة القسوة: تصريحات، تفاوضٌ لا يكتمل، جملةٌ عن هدوءٍ هشّ، ثم فاصل موسيقي. يوسف يرفع حاجبيه:

— نفس الكلام... كأنهم ينسخون أخبار الأمس اليوم.

— بدنا نعيش، يا حاج، وما إلنا غير الصبر.

— الصبر حبل طويل، بس بدنا عقده ما تنفكّ.

— ما بتنْفك، طول ما إحنا مع بعض.

يبتسم يوسف، ويستدير نحو غرفة آدم. يراه نائمًا بسلامٍ مؤقت، فيهمس:

— الله يحميه.

في بيت الجيران، تنطفئ المصابيح بالتدريج. يعلو صوتُ بحرٍ لا يُرى، ويخفت صوت البشر. ينام الحيّ كجسدٍ واحد، يضع رأسه على كتف البحر، ويغطي نفسه ببطانيةٍ من نجوم. قبل أن تنام أمينة، تفتح هاتفها وتتفقد رسائل قديمة. رسالةٌ من أختها في الخارج: "متى سأراكِ؟" تردّ عليها بذات الجواب المؤجل: "قريبًا". تمحو الكلمة وتكتبها مرةً أخرى. تغلق الهاتف، وتطفئ الضوء، وتترك للنافذة شقًّا صغيرًا كي لا يختنق الليل.

البحر، الذي ظلّ طوال النهار يضرب الموج على الرمل كطبّالٍ عنيد، يتباطأ. يضع رأسه على كتف الشاطئ، ويحكي له بصمتٍ حكايةً عن مدنٍ بعيدة وقواربٍ عادت محملةً بالقمح والغناء. الشاطئ ينصت. هذا سرّهما القديم: حين لا يجد الناس لغةً لقول ما يريدون، يتكلم البحر والرمل عنهم.

في منتصف الحيّ، شجرة ليمون تُطلّ من فناءٍ صغير. الليمون معلقٌ كنجومٍ صفراء، يلمع تحت ضوءٍ ضعيف. مرّ بها الشتاء ثقيلًا، لكن أغصانها لم تقطع. أمينة تعدّ في رأسها كم ليمونة ستقطف غدًا لصحن السلطَة. يوسف يتذكر أن أمّه كانت تعصر الليمون على الماء وتقول: "هذا دواءٌ للفقر"، ويضحك بينه وبين نفسه، فالفقر صار يعرف كل الأدوية ولا يشفى.

في المدرسة القريبة، حارسٌ يغلق البوابة، يربط القفل بسلسلة. يمرّ بأصابع على الزجاج المكسور للصف الرابع، يعدّ الكراسي، يتفقد العلم المعلّق على ساريةٍ قصيرة. يرمي نظرةً على السبورة: مسألةٌ في القسمة، تاريخٌ متروك على الهامش، رسمٌ لطفلٍ يبتسم ويقف تحت شمسٍ ضخمة. يقول الحارس وهو يقفل الباب:

— تصبحون على خير.

وكأنه يخاطب الكتب والطبشور والرسومات.

عند الحاجز البعيد، ضوءٌ أخضر يقطع الظلام كالسكين. سياراتٌ قليلة تمر، يتوقف بعضها دقائق طويلة ثم يُسمح لها بالعبور، يعود بعضها أدراجَه. الليل هناك ليس هادئًا، لكنه بعيد بما يكفي كي لا يوقظ الحيّ جميعه. يكفي أن يترك أثرًا خفيفًا في الهواء، كروائح لا تُرى.

في بيت أمينة، الساعة تقترب من منتصف الليل. يوسف نام على الكنبة الصغيرة، المسبحة لا تزال في يده، وأصابعه تواصل الحركة كأن الذكر يشتغل وحده بعد أن ينام صاحبه. أمينة تتدثر ببطانيةٍ رقيقة، تتأكد مرةً أخيرة من أن الباب موصد، وتذهب إلى سريرها. في آخر لحظة، تقترب من نافذة آدم، تسحب الغطاء إلى عنقه، وتقبّل جبهته. لا تريد أن توقظه، ولا تريد أن تتركه من دون قبلة. الأمومة حبلٌ آخر، لا يُرى، لكنه يشدّ الأشياء المتباعدة إلى بعضها بعضًا.

يستقر الليل أخيرًا، كطائرٍ وجد غصنه. صوت الراديو يذوب في السكون. الكلاب البعيدة تتوقف عن النباح. البحر يواصل حديثه المتمهل مع الرمل. ليان تغلق دفترها وتضعه تحت خدها، كأن الكلمات وسادة. في الحلم، تلوّح لسفينةٍ بيضاء تقترب من الشاطئ، تحمل مكتبةً كاملة وأجهزة تنفّسٍ وكراسٍ متينة، وتضحك حين ترى أن السفينة تحمل اسمًا عربيًا ناصعًا.

قبل الفجر بقليل، يحدث ذلك الارتعاش الخفيّ الذي لا تلتقطه آلات القياس: ارتجافةٌ تمرّ في الهواء، كنسمةٍ باردة عبر نافذةٍ مواربة. لا أحد يلتفت، فالمدينة اعتادت تغيّر نبض الليل. غير أن البحر وحده ينتبه. يرفع رأسه قليلًا، يحدّق في العتمة، ويقول للرمل بصوتٍ لا يسمعه أحد:

— أحفظ وجوههم واحدًا واحدًا. إن استيقظوا مذعورين، قل لهم إنني هنا.

يردّ الرمل:

— وأنا هنا.

ويعود الليل إلى أنفاسه القادمة.

في تلك اللحظة الدقيقة بين نومٍ عميق وصبحٍ لم يولد بعد، يتذكّر يوسف شيئًا بعيدًا: خيمةً من قماشٍ أبيض، رائحة ترابٍ مبتلّ، أمّه تغنّي أغنيةً لا يتذكر كلماتها كاملة، لكن لحنها ما زال محفوظًا في قلبه مثل مفتاحٍ صدئ يفتح بابًا لا يعرف أين صار. يبتسم وهو نائم، كأن الأحلام تصالح بين الأزمنة، وتضع اليد على كتف الماضي كي لا يسقط.

آدم ينقلب على جنبه الآخر، يضُمّ دميته بقوةٍ أكبر. في الحلم، البحر ليس بعيدًا، وأبوه الذي غاب يرمي له حجرًا أملس، يقول له: "احفظه... هذا حجرُ بيتنا". يلتقط الطفل الحجر، يضعه في جيبه الصغير، ويجري على شاطئٍ لا ينتهي. يضحك... ضحكةٌ خافتة تهتزّ فوق وسادته.

الحيُّ كلّه، في تلك الدقائق الخجولة، يشبه صدرَ أمٍّ يتّسع لطفلين أكثر مما يُفترض أن يتسع. حجرٌ فوق حجر، بابٌ يئنّ، كرسيٌّ وحيد على سطح، كتابٌ مفتوح على مسألةٍ لم تُحلّ، وتمرةٌ على صحنٍ مغطى بمنديل، وصنارةٌ تنتظر سمكةً عابرة، ودفترٌ أزرق تحت خدّ فتاةٍ تحلم بقاعات تشريحٍ مضاءة جيدًا. هذا الليل هادئٌ لأن المدينة قررت أن تمنحه فرصة. كأنها تقول للقدر: "دعنا نلتقط أنفاسنا قبل الجولات القادمة".

وعندما تهلُّ أولُ خيوط الفجر من الشرق، خيوطٌ رقيقة تلمس الحواف وتُبرز الندوب كخرائط صبر، تُفتح نافذةٌ في بيتٍ قريب، تمتد يدٌ صغيرة تمسح بخارَ النوم عن الزجاج. ينهض المؤذن من فراشه، يصلح صوته بكحةٍ خفيفة، ويقول ما يقوله كل فجرٍ منذ كان: "الصلاة خيرٌ من النوم". تمتدّ الكلمة على الحيّ مثل ماءٍ دافئ، توقظ من يقدر على القيام، وتربّت على كتف من لا يستطيع. ينهض الصيادون واحدًا واحدًا، يجرّون القوارب نحو الماء. تضع أمينة إبريق الشاي على النار قبل أن توقظ آدم، وتفتح ليان دفترها لتراجع سطرًا كتبته ليلًا. يترك يوسف المسبحة تسقط بهدوءٍ إلى الطاولة، ويمسح وجهه بماءٍ بارد.

يُطلّ الصبح برأسه من خلف الحافة، يتحسس الطريق، يتردد لحظة، ثم يدخل. انتهى الليل الهادئ. وفي مكانٍ ما، خارج إطار الهدوء، يدور شيءٌ لا يُرى بعد... كأنه يتأهب ليكتب على صفحة النهار كلمةً سيتمّ تذكّرها طويلًا

الفصل الثاني: الانفجار

كان الصبح ما يزال يتثاءب على غزة. البيوت تتقلب على جنبها الآخر، تستعد لاستقبال نهارٍ جديد. في الأزقة، بدأ الأطفال بالانتشار مثل أسراب عصافير صغيرة: هذا يحمل حقيبته المدرسية، وذلك يجرّ دراجته الصدئة، وتلك الطفلة تسرّح ضفيرتها وهي تجري خلف أخيها الأكبر. البحر بدوره غسَل وجهه بموجةٍ عالية، ثم ركن إلى الهدوء. بدا كل شيء طبيعيًا... أو كأنه يحاول أن يبدو كذلك.

أمينة وضعت إبريق الشاي على الطاولة، سحبت كرسيًا وجلست أمام النافذة. في يدها رغيف خبز ساخن، وفي يدها الأخرى سكين تدهن به الزيت والزعتر. يوسف، الجدّ، كان على السطح يراقب الشارع بعينين يقظتين. قال لنفسه وهو يشدّ المسبحة: "اليوم يشبه البارحة... لكني لا أثق في الهدوء الطويل".

ليان خرجت من بيتها تحمل دفترها الأزرق، تتأمل الطريق إلى الجامعة. كانت تردد لنفسها: "سأكتب فصلًا جديدًا عن الصبر". ابتسمت حين رأت الأطفال يركضون خلف كرةٍ قديمة. "هؤلاء يكتبون أجمل القصائد بلا قلم"، فكّرت.

آدم، الطفل الصغير، كان يضحك وهو يركض في الفناء حاملاً دميته القماشية. صرخ:

— ماما، شوفيني! أنا أسرع واحد!

ابتسمت أمينة وهي تنظر إليه من النافذة:

— الله يحميك يا ضحكة البيت.

لكن السماء لم تكن تبتسم. في أعلاها، تحرّكت غمامة غريبة، ليست بيضاء ولا رمادية. كانت غمامة معدنية، تبعث أزيزًا متقطعًا يشبه الأنياب التي تصرّ على بعضها. يوسف رفع رأسه فجأة وقال بصوتٍ خافت:

— اللهم استر.

ثوانٍ قليلة، ثم جاء الصوت. صوت لم يشبه أي شيء آخر: ليس هدير طائرة مدنية، ولا عاصفة، ولا رعدًا. كان صوتًا واحدًا، لكنّه يحتوي أصواتًا كثيرة داخله: طرق الحديد على الحديد، صرير أبوابٍ مخلعة، صرخات مكتومة، وأخيرًا... فراغ ضخم يبتلع كل ما يمرّ به.

ثم... الانفجار.

الأرض ارتجفت كأنها تفقد توازنها. النوافذ تحطمت كبلورات صغيرة، تطاير الزجاج في كل اتجاه. الأبواب انفتحت عنوة، والجدران تمايلت مثل رجالٍ سكارى. أمينة رمت الرغيف من يدها، وصرخت:

— آدم!

ركضت نحو الغرفة، والغبار يسبقها.

آدم كان تحت الطاولة الصغيرة، عيناه واسعتان كقمرين مذعورين. أمينة مدت يديها وسحبته إلى صدرها، تحيطه بجسدها كما تحيط الأرض بالبذرة. يوسف على السطح وقع أرضًا، تدحرجت المسبحة من يده وتناثرت حباتها. تمسّك بالدرابزين وهو يلهث، عيناه تدمعان ليس من الدخان وحده بل من ذكرى بعيدة انفجرت في ذاكرته: خيمة، وجوه تهرب، صرخة أم، وسماء ممزقة.

في الشارع، الغبار صار ستارةً سميكة تحجب كل شيء. الناس يركضون كظلالٍ مرتبكة، أصوات النساء تختلط بأصوات الأطفال والرجال. بعضهم يصرخ بأسماء أحبائه، بعضهم يلهث بحثًا عن أي ملجأ، وبعضهم يصمت فجأة... صمت الموت.

ليان كانت على بعد خطوات من باب الجامعة. الانفجار ألقى بها أرضًا، دفترها الأزرق طار من يدها، أوراقه تناثرت كحمامٍ مذعور. حاولت النهوض، ركبتاها ترتجفان، الدم يسيل من جبينها، لكنها أمسكت بأوراقها الممزقة وكأنها تتمسك بالحياة نفسها.

عند البحر، ارتجفت الأمواج كأنها صفعت فجأة. صيادون تركوا شباكهم وقفزوا إلى الرمال. البحر ظلّ يضرب الشاطئ بقوة، وكأنه يحتج: "لماذا تفعلون هذا بي وبهم؟".

في المستشفى القريب، بدأ الأطباء والممرضون يركضون بين الغرف، يجهزون الأسرة، يفتحون الأبواب. لم يسألوا عن التفاصيل، فقد اعتادوا أن تأتيهم القصص كلها دفعةً واحدة: أجساد محمولة، وجوه مغبرة، دماء ساخنة لم تلتحق بعد بالبرودة.

وسط الركام، سُمعت صرخة صغيرة. كان آدم يضغط وجهه على صدر أمه:

— ماما، السماء وقعت؟

ترددت أمينة لحظة، ثم شدّت عليه أكثر وهمست:

— لا تخاف... السماء ما بتقع... السماء إلنا.

أما يوسف، وهو يزحف على ركبتيه في الغبار، فقد أمسك بحبة مسبحة ضاعت منه. رفعها نحو السماء وهو يهمس:

— يا رب... مش تاني. مش تاني...

لكن الانفجار لم يكن الأخير. كان مجرد البداية.

الفصل الثالث: الركام

الغبار يملأ الحيّ كضبابٍ كثيف، لا يُرى من خلاله سوى أشباح تتحرك بلا اتجاه. الهواء صار أثقل من أن يُتنفس، والأنفاس تتحول إلى سعالٍ متقطع. في كل زاوية صرخة، وفي كل ركنٍ يدٌ تبحث عن يد. كان الانفجار أشبه بزلزالٍ انفجر من السماء، ترك خلفه شارعًا لم يعد يعرف نفسه.

أمينة خرجت من بيتها تحمل آدم ملتصقًا بصدرها. قدماها تتعثران بالحجارة والزجاج، لكنها لا تتوقف. كانت تبحث بين الغبار عن جارتها، عن أي وجهٍ مألوف، عن حياةٍ صغيرة تثبت أن الموت لم ينتصر. آدم يهمس وهو يختبئ في كتفها:

— ماما... البيت وقع؟

ترد عليه وهي تركض:

— البيت واقف بقلوبنا يا حبيبي، بس خلينا ندور على الناس.

في السطح، يوسف نهض أخيرًا، يجرّ جسده المثقل بسنواته الطويلة. وجهه مخضّب بالغبار، يلهث كمن غاص في بحرٍ من تراب. يمدّ يده إلى الجدار المائل، يسنده، كأنه يحاول أن يقنع البيت ألّا يسقط. عيناه تتجولان بين الركام، تبحثان عن أحياء. يصرخ:

— يا جيران! مين سامعني؟

صوت أنين خافت يخرج من تحت حجارة قريبة. يوسف يسرع باتجاهه، ينحني رغم ألم ركبتيه، يزيح حجرًا، ثم آخر. يخرج يدًا صغيرة، يدٌ ملطخة بالدماء، لكنها تتحرك. يصرخ يوسف بكل ما بقي في صدره:

— في حدا عايش هون! تعالوا ساعدوني!

يتجمع الرجال من الأزقة، بأيدٍ عارية يحاولون رفع الحجارة الثقيلة. كل حجرٍ يزيحونه يكشف عن جزءٍ من جسد، وعن أملٍ أكبر. الطفل تحت الركام يبكي الآن، وصوته مثل خيط نورٍ في عتمة كثيفة. رجل يمد يده، يسحب الطفل، يرفعه عاليًا كأنه يرفع الحياة من تحت الموت. الجموع تصرخ:

— الله أكبر... الله أكبر!

ليان، التي سقطت عند باب الجامعة، تنهض متعثرة. تمسح دمها بيدها وتجمع أوراقها المتناثرة. لكن عينيها تقعان على صديقتها زينب ملقاة قرب الجدار. تركض نحوها، تهز كتفيها:

— زينب! اصحي... احكي!

لكن زينب لا ترد. تضع ليان أذنها على صدرها، تبحث عن دقّة قلب. صمتٌ طويل، ثم دقّة ضعيفة، بالكاد تُسمع. تصرخ ليان:

— في نبض! في نبض! ساعدوني!

شبابٌ يقتربون، يحملون زينب على بطانية قديمة، يركضون بها نحو المستشفى. ليان تسقط على ركبتيها، تبكي وهي تشد على دفترها الأزرق:

— مش لازم يموتوا... مش لازم!

البحر ظلّ يضرب الشاطئ بعنفٍ غير معتاد، موجاته تصطدم بالرمل كأنها تريد أن تقتحم المدينة وتنقذها. صيادون تركوا قواربهم وركضوا نحو البيوت. كانوا يصرخون:

— وينكم يا ناس؟ مين ضلّ تحت؟

في المستشفى، الممرات تتحول إلى أنهارٍ من دمٍ وغبار. أطباء يركضون، ممرضات يربطن الجروح بقطع قماشٍ مقطوعة من أثوابهن. أصوات تكبير، أصوات بكاء، أصوات تسبيح، تختلط كلها في سمفونيةٍ موجعة.

وسط الركام، جلست أمينة على الأرض، تضم آدم بقوة. كانت عيناها معلقتين بجدار بيتها الذي تهاوى نصفه. تهمس:

— هاد بيتنا يا آدم... رح نرجعه بالحجارة والدموع.

يسألها الطفل ببراءة:

— وإذا وقع كمان؟

تضع يدها على صدره وتقول:

— طول ما قلبك بدق، البيت واقف.

يوسف يجلس قريبًا منها، متكئًا على عصاه. وجهه متعب، لكن عينيه فيهما بريق قديم. يهمس:

— هذا الركام ما بخوفني... أنا شفت الركام من قبل. الجديد إنّي بشوف فيه أحفادي لساتهم عايشين.

ينظر إلى السماء الرمادية ويقول:

— يا رب، أعطينا قوة نكمل.

وهكذا، في قلب الركام، لم يكن هناك موتٌ فقط. كان هناك أيضًا صمود، دموع، وولادة جديدة من رحم الحجارة. فالركام، في غزة، ليس نهاية الحكاية... بل بدايتها من جديد

الفصل الرابع: جدائل ليان

كانت ليان تجلس على حافة السرير في غرفةٍ ضيقة بمستشفى غزة، شعرها مفكوك، يتدلى في خصلٍ متربة من أثر الركام. ضمادةٌ صغيرة على جبينها تخفي جرحًا سطحيًا، لكن عينيها كانتا تحملان جروحًا أعمق بكثير. كانت تنظر إلى دفترها الأزرق الممزق بين يديها، أوراقه مثقوبة من الشظايا، وبعض الجمل عليه ملطخة بالدم. همست لنفسها:

— حتى الكتابة ما بتسلم...

قبل الانفجار، كانت ليان تعرف نفسها بجدائلها الطويلة، كانت تضفرها كل صباح على عجل قبل الجامعة. تقول لها أمها دائمًا: "ضفرك سرّك يا ليان، كل ما طالت ضفرك، طال عمرك". لكن جدائلها اليوم لم تعد سوى خيوطٍ معلقة بالغبار. مرّت يدها عليها ببطء، كأنها تبحث عن نفسها بين الشعر والحطام.

بينما هي غارقة في أفكارها، دخلت الممرضة مسرعة، وضعت يدها على كتفها وقالت:

— ليان، تعالي بسرعة. صاحبتك زينب فوق، لساتها بين الحياة والموت.

قفزت ليان من مكانها، ركضت خلف الممرضة، قلبها يدق كطبلٍ صغير. في غرفة العناية، رأت زينب مسجاة على السرير، وجهها شاحب كالقمر المنطفئ، وأنابيب الأكسجين تلتصق بأنفها. اقتربت ليان، أمسكت بيدها الباردة، وضغطت عليها:

— زينب... أنا هون. لا تتركيني لحالي.

لم تفتح زينب عينيها، لكن يدها ارتجفت قليلًا، كأنها تعطيها وعدًا صامتًا. دموع ليان سالت بغزارة، بللت أوراق الدفتر الأزرق الذي لم تفارقه. كتبت على ورقة جديدة: "الوعد أن نكمل معًا، حتى لو الطريق كله ركام."

في المساء، خرجت ليان من المستشفى لتتنفس. جلست على درجٍ مهدم قريب، نظرت إلى البحر الذي بدا حزينًا، أمواجه كئيبة كمن يحمل خبرًا لا يريد أن يقوله. رفعت دفترها وبدأت تكتب بصوتٍ مسموع:

— "أنا ليان، بنت هذا الركام. جدائلي طويلة لكنها مربوطة بذاكرة الأرض. أحلم أن أصير طبيبة، أعالج الأوجاع الكثيرة التي لا تكفي لها المستشفيات، أداوي عيون الأمهات، وأخيط صدور الأطفال. جدائلي حبالٌ تربطني بالحياة، وإذا قصّوها، رح أطيلها من جديد."

مرّ رجل مسنّ بجانبها، سمعها، توقف وقال:

— صوتك زي صوت البلد... ما ينقصه إلا يضلّ عالي.

ابتسمت ليان وسط دموعها، وأدركت أن جدائلها لم تكن مجرد شعر، بل رمز لصمودها، لوعدها بأن تواصل رغم كل شيء.

في الليل، عادت إلى بيتها نصف المهدّم، جلست أمام المرآة المكسورة. أمسكت خصلاتها المتربة وبدأت تضفرها ببطء. كل ضفيرة كانت كأنها تربط قطعة من روحها التي تكسرت في الانفجار. وعندما انتهت، نظرت في المرآة وقالت لنفسها:

— غدًا سأبدأ من جديد. هذه الضفائر مش حزن... هذه إعلان حياة.

الفصل الخامس: ذاكرة يوسف

جلس يوسف في ركن البيت المتهدم، عصاه إلى جانبه، والمسبحة تتدحرج بين أصابعه كأنها عدّاد لأيامه الطويلة. لم يعد يسمع صخب الخارج كما يسمعه الآخرون، أذناه المشبعتان بأصوات الانفجارات صارتا تختزان الضجيج وتحوّلانه إلى صمت داخلي. نظر إلى أحفاده وقال:

— يا ولاد، إلّي بتشوفوه اليوم مش جديد عليّ.

اقتربت أمينة وجلست قربه، وضعت يدها على كتفه:

— شو قصدك يا حاج؟

تنهد يوسف طويلًا، ثم قال:

— قصدت إنو هذا الركام أنا شفت زيه، يمكن أسوأ... يوم طلعونا من بيوتنا سنة الـ48. كنت ولد صغير زي آدم. أمي ماسكة إيدي وإيد أخوي، وأبوي شايل شوال طحين ع كتفه، نمشي وما نعرف وين رايحين.

سكت قليلًا، عينيه تلمعان كأنهما تريان ما لا نراه.

— أتذكر ريحة الأرض بعد ما تركناها... ريحة التراب المبلول بالدموع. أتذكر خيمة بيضا كبيرة، حطّونا فيها، قالوا مؤقت. صار إلها سبعين سنة ومؤقتها ما خلص.

رفع رأسه ونظر إلى الركام حوله:

— كل مرة بننهدم ونقوم. كل مرة بننطرد ونرجع. يا أمينة، هذا الدم مش غريب علينا... بس الغريب إنو لسا فينا نحب ونضحك بعد كل شي.

آدم، الطفل الصغير، جلس في حضن جده، رفع عينيه الواسعتين وسأل ببراءة:

— جدو... يعني رح نضل نرجع وننهدم؟

يوسف شدّه إلى صدره وقال بصوتٍ يرتجف:

— لا يا حبيبي، رح ييجي يوم ونبني وما ينهدم. رح ييجي يوم يضلّ البيت واقف والضحكة ما تطفيها قنبلة.

ليان كانت تسمع من بعيد، دفنَت وجهها في دفترها الأزرق وبدأت تكتب:

"جدّي يملك ذاكرة أطول من أسوار غزة، ذاكرة تقاوم النسيان. هو الحبل الذي يشدّنا إلى ماضٍ مليء بالألم، لكنه في الوقت نفسه يعلّمنا أن الغد ممكن."

يوسف أغلق عينيه، وصوت البحر وصل من بعيد، كأنه يكمّل حكايته. البحر الذي كان حاضرًا في النكبة، حاضرًا في كل حرب، شاهدًا على كل انفجار. يوسف ابتسم وقال:

— البحر شاهد، وأنا شاهد... وأنتو يا ولاد رح تصيروا الشهود الجدد.

أمينة مسحت دمعةً سقطت من عينه، ثم قالت:

— الله يطوّل بعمرك يا حاج، بدنا إياك تحكي أكتر.

ضحك يوسف رغم التعب:

— يا بنتي، الحكايات ما بتخلص، بس المهم... تضلّ في ناس يسمعوها

الفصل السادس: البحر يتكلم

أنا البحر.

أقف على حافة غزة منذ آلاف السنين، أمسكها بيدي كي لا تسقط من على حافة العالم. رأيت جيوشًا تعبرني، سفنًا تغزو وتنهب، ورأيت الصيادين البسطاء يرمون شباكهم طلبًا لسمكة تسد جوع أطفالهم.

أنا البحر، والناس هنا يعرفون أنني رفيقهم ومرآتهم. حين يفرحون أرقص على الشاطئ، وحين يبكون أتلاطم غاضبًا كأني أبكي معهم.

في صباح الانفجار، لم أكن هادئًا. شعرت بالسماء تتمزق، وارتجفت أعماقي. دفعت بموجة عالية إلى الرمال، كأنني أريد أن أصرخ: انتبهوا... الخطر قادم! لكن صوتي ضاع بين أصوات الطائرات.

منذ عقود وأنا أرى أطفال غزة يركضون نحوي، يحملون في جيوبهم حجارة ملونة التقطوها من شاطئي. يبنون منها بيوتًا صغيرة فوق الرمل، ثم يضحكون حين ينهار البناء مع أول موجة. لا يعرفون أن هذا التدريب الأول على معنى أن تنهدم البيوت وتُبنى من جديد.

رأيت أمينة تأتي إليّ مراتٍ كثيرة، تحمل رغيف خبزٍ وتجلس على صخرة، تحدّثني كصديقٍ قديم. تبوح لي بأسرارها، وتطلب مني أن أكون شاهدًا على أن دموعها لم تذهب سدى.

ورأيت يوسف، الجدّ، يقف عند الغروب، يحدّق في الأفق البعيد، كأنه يبحث عن الطريق الذي خرج منه قبل سبعين عامًا. يهمس لي: "احفظ لنا هذا المدى... سيعود يومًا إلينا."

رأيت ليان تجلس على الرمل، دفترها الأزرق في حضنها. ترسم مراكب بيضاء وأعلامًا ترفرف، وتكتب أسماءً غريبة بلغة لم تتعلمها بعد. كانت تقول لي: "سأغادر يا بحر، لكني سأعود طبيبةً تعالجك أنت أيضًا." كنت أضحك بصمتي، وأتمنى أن يصدق حلمها.

أما آدم، الطفل الصغير، فهو صديقي الأقرب. يركض نحوي حافي القدمين، يضحك حين تلامس قدماه الموج. يرمي إليّ دميته القماشية فأعيدها له بموجةٍ صغيرة. يصرخ: "البحر صاحبنا!" وأنا أجيبه بموجة أعلى.

أنا البحر، وأشهد أن غزة رغم الانفجارات لم تغرق يومًا. كانت دائمًا تطفو، مثل خشبةٍ صلبة لا تغمرها المياه.

لكنني أتألم، أتألم لأنني بابها الوحيد على العالم، ومع ذلك يضعون حولي سياجًا من نار وسفنًا من حديد. كلما حاول أحد أبنائها أن يعبرني، صرخوا في وجهي: قف! هذا البحر ليس لك.

أعرف أنني لهم، وأنهم لي.

وفي كل موجةٍ أرسلها إلى شاطئهم، أخبئ وعدًا سرّيًا: لن أترككم وحدكم. سأبقى شاهدًا عليكم، وعلى صمودكم، وعلى انفجاراتكم التي تتحول دومًا إلى حياة.

الفصل السابع: المستشفى

لم يكن مستشفى الشفاء في غزة يشبه المستشفيات العادية في أي بلد آخر. كان أقرب إلى مدينة داخل مدينة، حيث تتقاطع فيه الحكايات مثل شرايين تتفرع من قلبٍ واحد. جدرانه ملطخة بالرطوبة والدهان المتقشر، أسِرّته قديمة، أجهزته متعبة، لكنه ظلّ واقفًا كالحارس الأخير للحياة.

في ذلك الصباح الذي أعقب الانفجار، تحولت ممراته إلى نهرٍ من أجساد وجروح وصراخ. سيارات الإسعاف تصل بلا توقف، بعضها بلا أبواب، بعضها يقودها متطوعون لم يدرسوا الطب يومًا، لكنهم يعرفون أن كل ثانية هي حياة.

دخلت أمينة وهي تمسك بيد آدم. أرادت أن تطمئن على جارتها التي سُحبت من تحت الركام، وعلى ليان التي أصيبت، لكنها وجدت نفسها أمام مشهدٍ آخر: أطفال على الأسرة يبكون بلا صوت، نساء يصرخن ويمسكن بملابس الأطباء، رجال ينزفون على الأرض لأن الأسرة ممتلئة. وقفت للحظة مشدوهة، لم تعرف هل هي في مستشفى أم في ساحة حربٍ أخرى.

في غرفة العمليات، كان الطبيب سليم يرفع رأسه من فوق جرحٍ غائر، يده مغطاة بالدم، عرقه يقطر من جبينه. صاح بالممرضة:

— خياطة بسرعة... نبضه عم يضعف!

الممرضة حنان لم تجب بالكلمات، بل مدت يدها بالإبرة والخيط، نظرتها ثابتة، كأنها اعتادت أن تخيط الجروح كما تخيط الأمهات الثياب الممزقة.

في الممر، جلس يوسف على كرسي خشبي قديم، المسبحة بين يديه. كان يردد الأدعية بصوتٍ خافت وهو يراقب الداخل. قال لنفسه:

— هذا المشفى صار جامع الدعاء. هون الناس يصلوا بلا سجادة، يصلوا بدموعهم.

ليان كانت على سرير في الزاوية، الضماد على جبينها أصبح أثقل من رأسها. لكنها لم تفكر بنفسها، بل سألت أول ما فتحت عينيها:

— وين زينب؟

أشارت الممرضة إلى غرفة العناية:

— هي بخير لحد الآن... ما تفقدي الأمل.

ابتسمت ليان رغم الألم، همست:

— الأمل مش بندم، الأمل بعيش.

آدم، الصغير، وقف في حضن أمه يراقب الأطباء والممرضات. رأى أحد الأطباء ينقذ شابًا توقف قلبه لثوانٍ ثم عاد للنبض. رفع آدم صوته وقال بانبهار:

— ماما! شفتِ؟ رجّعوه للحياة!

أمينة مسحت دموعها وقالت له:

— إي يا قلبي... هدول أبطال بيلبسوا مريول أبيض.

وسط الزحام، كان هناك شاب يحمل كاميرا صغيرة، يصور الممرات والجروح والدموع. اقترب منه يوسف وسأله:

— لمين بتصوّر؟

قال الشاب:

— للعالم... يمكن يصدقونا هالمرة.

ضحك يوسف بسخرية حزينة:

— العالم؟... يا ابني، العالم صار أعمى، بس صور... يمكن يجي يوم يفتحوا عيونهم.

مع مرور الوقت، ازدادت الغرف امتلاءً. الأطباء يشتغلون بوجوه شاحبة، أصابعهم لا تتوقف، عيونهم نصف مغلقة من التعب، لكنهم يواصلون. كل جرح يخيطونه كان رسالة تحدٍ: نحن هنا، لن نموت جميعًا.

في المساء، خفتت الأصوات قليلًا. بعض الجرحى ناموا من شدة التعب، بعضهم فارق الحياة بهدوءٍ لم يلاحظه أحد إلا الممرضة التي غطتهم ببطانية. على شرفة المستشفى، وقفت ليان تحمل دفترها الأزرق، كتبت بخطٍ مرتجف:

"هنا، حيث الألم أكبر من البحر، يولد الأمل في كل غرفة. الأطباء ليسوا مجرد أطباء، إنهم جنودٌ يكتبون سيرة غزة بدمهم وعرقهم. كل قطبة على جرح هي آية حياة."

الفصل الثامن: تحت الحصار

لم تكن الانفجارات وحدها ما يمزق غزة. فحتى حين يصمت الطيران، يبقى الحصار كقيدٍ ثقيل على عنق المدينة. الحصار لم يكن جدارًا واحدًا، بل جدرانًا كثيرة: جدار من الإسمنت عند المعابر، جدار من البيروقراطية يمنع الدواء، جدار من العتمة حين تنطفئ الكهرباء، وجدار من الصمت العالمي.

في الليل، حين هدأ المستشفى قليلًا، عادت أمينة مع يوسف وآدم إلى بيتهم الذي فقد نصف سقفه. حاولت أن تشعل الضوء، لكن الكهرباء مقطوعة منذ العصر. أشعلت شمعة صغيرة، وضعتها في كأس زجاجي مكسور الحافة، وقالت:

— نور قليل... بس بيكفي.

ضحك يوسف بحزن:

— غزة متعودة تعيش على الفتات... حتى النور بتشربه جرعات.

آدم جلس قرب أمه، يحدق في ظل الشمعة على الحائط. سألها:

— ماما، ليش النور ما بيحبنا؟

أمينة مسحت على شعره وقالت:

— النور بيحبنا يا روحي... بس في ناس ما بدهم يوصل إلنا. بس إحنا بنصنع نورنا من قلوبنا.

في الصباح، خرجت ليان إلى السوق تحمل دفترها الأزرق في حقيبتها. السوق مكتظ بالناس، لكن الرفوف فارغة إلا من بعض الخضار الذابلة. أحد الباعة عرض علبة حليب بودرة صغيرة بثمن باهظ، ووراءه امرأة تبكي لأنها لا تملك ثمنه لطفلها. اقتربت ليان، أعطتها جزءًا مما وفّرته، وقالت:

— الحليب مش ترف... الحليب حياة.

شكرَتها المرأة، وغادرت وهي تمسح دموعها. جلست ليان على كرسي خشبي أمام الدكان، أخرجت دفترها وكتبت:

"الحصار ليس فقط انقطاع كهرباء، أو نقص دواء. الحصار حين ترى طفلًا يصرخ من الجوع وأنت عاجز إلا عن كتابة صرخة أخرى على ورق."

في المساء، تجمّع الجيران على سطح بيت نصفه مدمر. أشعلوا نارًا صغيرة لطهي العدس. جلس يوسف بينهم يحكي:

— تذكروا يا جماعة... الحصار هذا مو أول مرة. من أيام الانتفاضة الأولى، كنا نخبز على الصاج ونشرب المي بالقطرة. بس شو يعني؟ ما انكسرنا.

أمينة أضافت:

— ولا رح ننكسر. يمكن الحصار يقصّ جناحنا شوي، بس ما بيقدر يطير القلب من مكانه.

البحر في تلك الليلة بدا كئيبًا. الموج صامت، الشاطئ مظلم. الصيادون لم يخرجوا، قالوا إن خفر السواحل يمنعهم. جلسوا قرب قواربهم الخشبية يحدّقون في الظلام. أحدهم قال:

— السمك عم يضحك علينا جوّا البحر.

آخر ردّ:

— خلي يضحك... يومًا ما رح نصيده ونضحك نحنا.

أما الأطفال، فظلوا يلعبون في الأزقة الضيقة حتى في العتمة. صنعوا كرة من خِرقٍ قديمة، ركلوها بين الركام. ضحكاتهم اخترقت الجدران، كأنها إعلان صغير أن الحصار لا يستطيع أن يحاصر الضحك.

يوسف نظر إليهم من بعيد وقال:

— شايفين؟ هذا سرّنا. العالم يحاصرنا، بس أولادنا يفتحوا بابًا ما بيشوفوه

الفصل التاسع: الرسائل الممزقة

كانت ليان تجلس قرب النافذة المحطمة، القمر نصفه غائب، والريح تداعب دفترها الأزرق. منذ الانفجار، صارت تكتب أكثر من أي وقت مضى، وكأن الكلمات وحدها تستطيع أن تهرّبها من جدار الحصار. كتبت رسالة طويلة إلى صديقتها التي سافرت إلى الخارج منذ عامين:

"عزيزتي نادين،

هنا، الليل ليس أسود فقط، بل محاطٌ بأصوات لم تعد تدهشنا. كل رسالة أكتبها إليك، لا أعلم إن كانت ستصل أم ستبقى أسيرة حقيبتي. أحيانًا أشعر أن الرسائل التي لا تصل، تصبح جزءًا من الركام، كأنها حجارة جديدة فوق قلوبنا."

طيّت الورقة بعناية، وضعتها في ظرفٍ أبيض قديم. تنهدت، ثم همست:

— يمكن عمري كله يصير رسائل ممزقة.

أمينة، في بيتها المتهدم، كانت تفعل الشيء نفسه. كتبت رسالة إلى أخيها في الضفة:

"أخي سامر،

البيت لم يعد بيتًا، لكنه ما زال مأوى قلوبنا. أطفالك يكبرون بعيدًا عني، وأطفالي يكبرون من دون أن يعرفوا عمّهم. كل الطرق مقفلة، لكن قلبي مفتوح لك. إذا وصلتك هذه الرسالة، تذكر أن أمينة لم تنسَ أن لك بيتًا في غزة."

وضعتها في درجٍ صغير، تعرف أنه لن يخرج أبدًا من الغرفة.

أما يوسف، الجد، فقد ظلّ يحتفظ برسائل قديمة صفراء، كتبها لأخيه الذي هاجر إلى الأردن في الخمسينات. رسائل بخطٍّ مرتجف، كلماتها بسيطة:

"كيفك؟ صحتك منيحة؟ الأرض هون بعدها إلنا ولو أخدوها من تحتنا. أولادي بخير، بس غزة ضيقة مثل قميصٍ صغير."

فتح يوسف الرسائل القديمة، قرأها مرة أخرى، ثم قال بصوتٍ مسموع:

— الرسائل زي الناس... بعضها بيوصل، وبعضها بيضلّ ضايع في الطريق.

في السوق، وقف شاب اسمه سامر (نفس اسم أخ أمينة). كان يبيع أوراقًا بيضاء ودفاتر صغيرة للطلاب. ابتسم وقال لأحد الزبائن:

— الناس بتفكر إنو الورق بس للمدرسة... بس والله الورق صار وسيلة نجاة. كل واحد عنا عنده قصة بيحب يكتبها... يمكن ما يوصل صوته، بس الورق بيحفظه.

آدم، الصغير، شاهد أمّه تكتب رسالة. سألها:

— لمين عم تكتبي يا ماما؟

ابتسمت وقالت:

— لعمّك البعيد.

— طيب ليش ما بتوصل؟

سكتت لحظة، ثم أجابته:

— لأن الطريق بينا وبينه مليان حواجز.

فكّر آدم قليلًا ثم قال ببراءة:

— خليني أنا أروح أعطيه الرسالة. أنا صغير... يمكن يخلوني أعدّي.

ابتسمت أمينة والدمع في عينيها، شدّته إلى صدرها وقالت:

— يا ابني... حتى الأطفال ما بيمرّوا.

ليان في تلك الليلة مزّقت إحدى رسائلها. لم تحتمل أن تكتب شيئًا لا يصل. مزّقت الورقة، لكنها لم ترمِها. جمعت القطع الصغيرة في كيس شفاف، ووضعتها على رفٍّ قرب سريرها. كتبت على الكيس: "هذي رسائل الممزقين... لعلّها تصل يومًا بالريح."

على الشاطئ، كان البحر يتلقّى رسائل مختلفة: زجاجات يكتب فيها الصيادون أو العشاق كلمات ويقذفونها في الماء. البحر وحده يعرف مصيرها. بعضها يصل إلى سواحل بعيدة، بعضها يضيع في الأعماق. البحر قال في همسه الموجي:

— الرسائل التي لا تصل، تصير أغنية في صدري... وأنا أوصلها للنجوم

الفصل العاشر: الانفجار الثاني

كان الليل ثقيلاً على غزة، كأن المدينة تنام تحت بطانية من الغبار. بعد يوم طويل من البحث تحت الركام، وبعد رسائل لم تصل، جلس الناس حول قناديل صغيرة، يحاولون إقناع أنفسهم أن الغد قد يكون أهدأ. لكن البحر وحده كان يعرف: الهدوء في غزة ليس إلا استراحة بين عاصفتين.

في بيت أمينة، اجتمعوا حول صحن عدس وبضع أرغفة خبز. يوسف يمسك مسبحته كعادته، وليان تكتب على دفترها الأزرق حتى في العتمة، وآدم يلعب بدميته القماشية قرب النافذة. فجأة، اخترق الأفق وميض أزرق، تبعه هدير غاضب، صوتٌ أعمى لا يحمل إلا الموت.

صرخ يوسف:

— الله يستر... هاد مش صوت واحد!

ثم دوّى الانفجار الثاني.

الأرض اهتزّت بعنفٍ أكبر من المرة الأولى. الجدران المتبقية مالت كأنها قررت أن تستسلم أخيرًا. النافذة تحطمت وتناثر زجاجها على جسد آدم. صرخت أمينة وهي تهرع إليه، تغطيه بذراعيها. ليان سقط دفترها الأزرق من يدها، أوراقه تناثرت من جديد، بعضها اشتعل بشرارة صغيرة.

في الخارج، الشارع تحوّل إلى عاصفة من نار وتراب. الناس ركضوا بلا اتجاه، بعضهم تعثر بالحجارة، بعضهم جُرح، وبعضهم سقط بلا حراك. سيارات الإسعاف التي بالكاد توقفت منذ الأمس عادت تدوي بصوتٍ أعلى من الانفجار نفسه.

على الشاطئ، ارتفع الموج فجأة كجدارٍ أزرق، ارتطم بالرمل بعنف، وكأن البحر أراد أن يشارك في الصرخة. صيادٌ كان يربط قاربه صرخ:

— ما بترحمونا لا بالبحر ولا باليابسة!

في المستشفى، عادت الممرات تمتلئ أكثر من طاقتها. الأطباء الذين لم يناموا منذ أيام ركضوا كأشباح. صرخ الطبيب سليم وهو يضع قفازيه:

— مش ملحقين! بدنا دم... بدنا أوكسجين!

الممرضة حنان ردّت وهي تركض:

— ما ضلّ... خلص كل شي!

دخلت أمينة تحمل آدم الذي نزف من ذراعه. صرخت وهي تمده للأطباء:

— ابني! أنقذوه...

أخذوه بسرعة، فيما جلست أمينة على الأرض تبكي، رأسها بين يديها. يوسف جلس قربها، وضع يده على كتفها وقال بصوتٍ مبحوح:

— لا تبكي... دم آدم رح يصير علم.

ليان، رغم جرحها، ساعدت الممرضات. أمسكت بيد زينب التي كانت لا تزال تحت المراقبة وقالت:

— ما رح نخلي الموت يغلب... حتى لو كان انفجار ورا انفجار.

في السماء، ظلّ الدخان أسود كغيمةٍ لا تعرف المطر. وفي الأرض، ظلّت غزة تنزف. لكن وسط كل ذلك، سُمع صوت طفل يصرخ من بين الركام:

— أنا عايش!

ركض الناس نحوه، رفعوه عاليًا، وصاحوا جميعًا:

— الله أكبر... الله أكبر!

كان الانفجار الثاني أشد من الأول، لكنه لم يستطع أن يطفئ الشرارة الصغيرة التي اسمها الحياة

الفصل الحادي عشر: الطفولة المعلّقة

آدم لم يعد طفلًا عاديًا منذ الانفجارين.

ذراعه ملفوفة بضماد أبيض، ودمية القماش التي كانت رفيقته صارت تحمل بقعة دمٍ صغيرة لم تغسلها أمينة بعد. كان يجلس أحيانًا في ركن البيت المتهدم، يراقب الغبار المتساقط من السقف وكأنه ثلج رمادي. لا يفهم لماذا بيته لم يعد بيتًا، ولماذا صار صوته يختفي وسط ضجيج الصواريخ.

في الصباح، نزل إلى الحيّ مع أطفال آخرين. حملوا كرة مصنوعة من جوارب قديمة، ورسموا بالطبشور خطوط ملعب فوق الإسفلت المشقق. بدأوا اللعب وكأنهم نسوا الانفجارات، لكن كلما دوّى صوت بعيد، توقفت أرجلهم لحظة، ترفع عيونهم نحو السماء، ثم تعود إلى الركض. كانت طفولتهم لعبة معلّقة بخيطٍ رفيع بين الضحك والخوف.

إحدى الفتيات، اسمها مريم، أمسكت يد آدم وقالت:

— إذا سمعنا الطيارة، نخبّي حالنا جوّا الدرج.

ضحك آدم وقال:

— وأنا رح أحميكي بدميتي!

ضحك الأطفال، ثم عادوا إلى اللعب. لكن الضحك في غزة ليس ضحكًا كاملًا؛ هو ضحك ينتهي فجأة مثل شمعة تُطفأ في ريح.

ليان راقبتهم من بعيد. كتبت في دفترها الأزرق:

"أطفال غزة لا يكبرون ببطء، بل يقفزون من الطفولة إلى الرجولة في ليلة واحدة. يحملون الدمى بيد، والحجارة باليد الأخرى. يركضون وراء الكرة، لكن أعينهم تراقب السماء دائمًا."

في المساء، جلست أمينة إلى جانب ابنها. سألَته وهي تمسح على شعره:

— شو بدك تصير يا آدم لما تكبر؟

فكر قليلاً، ثم قال بجدية أكبر مما تحتمل سنّه:

— بدي أصير طيّار.

ابتسمت أمينة بمرارة:

— طيّار مدني، تسافر وتشوف العالم؟

هزّ رأسه:

— لأ... طيّار يحمل الناس ويرجعهم لبيوتهم إذا تهدموا.

يوسف، الجد، سمع الحوار، فابتسم رغم التعب. قال:

— شايفين؟ الطفل إللي مفروض يحلم باللعب، صار يحلم يرجّع الناس لبيوتهم. هاي طفولة معلّقة بين السماء والركام.

وفي الليل، نام آدم وهو يحتضن دميته، لكن في حلمه لم يكن مجرد طفل. رأى نفسه يقود طائرة بيضاء كبيرة، يجلس فيها أطفال غزة جميعًا. لم يكن هناك صواريخ، ولا أصوات انفجارات. كان البحر تحتهم أزرق صافي، والسماء فوقهم مفتوحة بلا قيود. ضحك آدم في الحلم... ضحكة كاملة هذه المرة.

الفصل الثاني عشر: صوت من تحت الأرض

في غزة، لا تأتي الأصوات من السماء وحدها. هناك أصوات أخرى، خفيّة، تنبعث من جوف الأرض، من عمقٍ مظلم حُفر بالأظافر والمعاول البسيطة. يسمونها الأنفاق، لكنها لم تكن مجرد ممرات ضيقة، بل شرايين حياة لمدينة محاصرة.

يوسف، الجد، جلس ذات مساء يحكي لأحفاده:

— الأرض يا ولاد ما بس تحملنا من فوق... أحيانًا بتفتح صدرها من تحت، بتعطينا طريق سرّي.

آدم فتح عينيه بدهشة:

— يعني في عالم تحت العالم؟

ضحك يوسف ومسح على رأسه:

— إيه... عالم مليان خوف وأمل بنفس الوقت.

في حيّ قريب، كان الشاب خالد يدخل أحد الأنفاق مع رفاقه. على ظهره كيس طحين، وفي يده مصباح صغير. الجدران من رمل رطب، سقفها منخفض، لكن خطواته كانت ثابتة. قال لصاحبه:

— كل كيس طحين بيطلع من هون يعني عيلة بتاكل ليلة كاملة.

رد الآخر وهو يلهث:

— والموت كمان واقف معنا هون.

ابتسم خالد بمرارة:

— الموت فوق وتحت... بس الحياة تستاهل نخاطر إلها.

النساء في الحي كنّ ينتظرن عند الفجر. حين يخرج الشبان من جوف الأرض محملين بالدقيق أو الأدوية أو القماش، ترتفع الزغاريد رغم الخوف. امرأة مسنّة قالت وهي تقبّل كيس أرز:

— هذا الكيس أثمن من الذهب.

ليان كتبت في دفترها الأزرق بعدما رأت المشهد:

"تحت الأرض، يولد نفق، وفوق الأرض يولد حلم. ما بينهما، مدينة تحاول أن تتنفس. الأنفاق ليست فقط ترابًا محفورًا، بل شهادة على أن الإنسان يخلق طريقًا حتى من رحم الظلام."

لكن الأنفاق لم تكن آمنة دائمًا. بعضُها انهار على من فيه، وبعضها اكتُشف وقُصف. وفي كل مرة، كان الناس يبكون، لكنهم يعودون ليحفروا من جديد. وكأن غزة تقول:

"إن أغلقتم السماء، سنفتح الأرض."

آدم سأل جدّه مرة أخرى:

— جدو... ليش بدهم يمنعونا ناكل ونشرب؟

يوسف شدّ الصغير إلى صدره وقال:

— لأنهم ما بيعرفوا إنو الغزيّ إذا انقطع عنه الأكل، بيزرع أمل من بين الحجارة.

وفي الليل، حين سكتت أصوات القصف، ظلّ هناك صوت آخر يتردد من تحت الأرض:

صوت معاول تضرب الرمل،

وصوت رجال يلهثون،

وصوت خافت يهمس:

— الطريق ما بينقطع... الطريق دايمًا بيتخلق.

الفصل الثالث عشر: نساء تحت الرماد

في كل صباحٍ ينهض من بين الركام، كان للنساء في غزة حكاية أخرى. لم يكنّ فقط أمهات يبكين على أطلال البيوت، بل كنّ أيضًا أيادي تبني، وصدورًا تحمي، وعيونًا تلمح النور حتى في أعمق الظلام.

أمينة، التي حملت بيتها على كتفيها بعد الانفجار، لم تستسلم للدمار. جمعت ما تبقى من الأثاث، رتّبت الأحجار فوق بعضها لتصنع جدارًا صغيرًا يحمي آدم من برد الليل. أوقدت النار من أخشابٍ محطمة، ووضعت قدر العدس من جديد. قالت لجارتها:

— بدنا ناكل... الحزن ما بيشبع.

جارتها أم خالد، التي فقدت زوجها وابنها، جمعت نساء الحي في ساحة صغيرة. وزّعت عليهن مهام بسيطة: واحدة تخبز، أخرى تنظف ما تبقى من بيوت، وثالثة تحيك ثيابًا من بقايا القماش. قالت لهنّ بحزم:

— الرجال في المقبرة أو في الجبهة... إحنا اللي لازم نضلّ نحيي هالمدينة.

ليان، رغم جراحها، عادت إلى الجامعة المهدّمة. لم تجد قاعات، لكنها جلست على درجٍ متصدع، جمعت حولها أطفالًا صغارًا، وبدأت تعلّمهم الأبجدية من دفترها الأزرق. قالت لهم بابتسامة:

— إذا الكتب انحرقت، بنكتب بالحجر. إذا المدارس تهدمت، المدرسة صارت هون، بين الركام.

في المساء، اجتمعت النساء حول موقد نار. إحدى العجائز غنّت موالًا قديمًا:

"على دلعونا... على دلعونا...

غزة ما بتموت ولو هدّوا بيوتنا."

ارتفعت أصوات النساء بالغناء، كأنهن يرممن الجدران بأصواتهن. الأطفال جلسوا في حضنهن، ناموا على ألحانٍ حزينة لكنها دافئة.

يوسف نظر إليهن وقال:

— والله النساء في غزة مثل الجمر... ينطمر تحت الرماد بس ما بينطفئ.

ليان كتبت في دفترها:

"كلما انطفأ بيت، أضاءت امرأة. النساء هنا يلدن الحياة مرتين: مرةً حين يأتين بالأبناء، ومرةً حين يحفظن المدينة من الموت."

آدم، وهو يتثاءب في حضن أمه، سألها:

— ماما... إنتِ سوبرمان؟

ضحكت أمينة وضمته:

— لأ يا قلبي... أنا أمّك، وهذا يكفي.

وهكذا، بين الرماد والدموع، ظلّت النساء في غزة ينسجن خيوط الصمود، كأنهن يقلن للعالم:

"نحن الجدار الأخير... وحين يسقط كل شيء، نحن مَن ينهض."

الفصل الرابع عشر: أجنحة من ورق

في الحيّ المتهدم، كان الأطفال أكثر من يعرفون كيف يسرقون لحظة فرح من بين الأنقاض. لم يجدوا طائراتٍ حقيقية، فصنعوا بأيديهم طائرات من ورق، قصّوها من دفاتر مدرسية محروقة أو جرائد قديمة، وربطوا بها خيطانًا بالية. رفعوها إلى السماء، وكأنهم يتحدّون القصف بأن يضعوا أجنحتهم الخاصة فوق الغيوم.

آدم، بيده اليسرى المربوطة بالضماد، أصرّ أن يصنع طائرته أيضًا. قالت له أمه:

— ذراعك موجوع... خلّيها لغيرك.

لكنّه هزّ رأسه:

— إذا ما طارت طيارتي... بضل حابس روحي في الأرض.

ساعدته ليان، قصّت له ورقة من دفترها الأزرق، رسمت عليها شمسًا صغيرة وكتبت: "الحلم أقوى من الانفجار". حين أطلقها آدم في الهواء، ارتفعت الطائرة الورقية كأنها تحمل صوته معه. ركض خلفها وهو يضحك، حتى نسي الألم في ذراعه.

أطفال آخرون رسموا على طائراتهم كلمات: "حرية"، "سلام"، "عودة"، "غزة". كل طائرة ورقية صارت رسالة معلّقة في السماء، لا تستطيع الصواريخ أن تطاردها.

يوسف، الجد، جلس على كرسيٍ خشبي يراقبهم. ابتسم وهو يقول:

— في زماني كنا نحلم بالحصان والجمل... واليوم أولادنا بيحلموا بالطيارات. الدنيا تغيّرت، بس الحلم نفسه: نطير بعيد عن القيد.

أمينة نظرت إلى السماء، فرأت الطائرات الورقية تتراقص بين الدخان. دمعت عيناها وقالت:

— يا رب، اجعل هالأجنحة الورقية تصير حقيقية يوم من الأيام.

في الليل، حين نام الأطفال، ظلّت الطائرات الورقية عالقة في أسلاك الكهرباء وعلى أسطح البيوت. صارت ترفرف مع الريح مثل راياتٍ صغيرة. ليان كتبت في دفترها:

"غزة مدينة بأجنحة من ورق. قد تتمزق، قد تحترق، لكنها دائمًا تعود لتصعد إلى السماء من جديد.

الفصل الرابع عشر: أجنحة من ورق

في الحيّ المتهدم، كان الأطفال أكثر من يعرفون كيف يسرقون لحظة فرح من بين الأنقاض. لم يجدوا طائراتٍ حقيقية، فصنعوا بأيديهم طائرات من ورق، قصّوها من دفاتر مدرسية محروقة أو جرائد قديمة، وربطوا بها خيطانًا بالية. رفعوها إلى السماء، وكأنهم يتحدّون القصف بأن يضعوا أجنحتهم الخاصة فوق الغيوم.

آدم، بيده اليسرى المربوطة بالضماد، أصرّ أن يصنع طائرته أيضًا. قالت له أمه:

— ذراعك موجوع... خلّيها لغيرك.

لكنّه هزّ رأسه:

— إذا ما طارت طيارتي... بضل حابس روحي في الأرض.

ساعدته ليان، قصّت له ورقة من دفترها الأزرق، رسمت عليها شمسًا صغيرة وكتبت: "الحلم أقوى من الانفجار". حين أطلقها آدم في الهواء، ارتفعت الطائرة الورقية كأنها تحمل صوته معه. ركض خلفها وهو يضحك، حتى نسي الألم في ذراعه.

أطفال آخرون رسموا على طائراتهم كلمات: "حرية"، "سلام"، "عودة"، "غزة". كل طائرة ورقية صارت رسالة معلّقة في السماء، لا تستطيع الصواريخ أن تطاردها.

يوسف، الجد، جلس على كرسيٍ خشبي يراقبهم. ابتسم وهو يقول:

— في زماني كنا نحلم بالحصان والجمل... واليوم أولادنا بيحلموا بالطيارات. الدنيا تغيّرت، بس الحلم نفسه: نطير بعيد عن القيد.

أمينة نظرت إلى السماء، فرأت الطائرات الورقية تتراقص بين الدخان. دمعت عيناها وقالت:

— يا رب، اجعل هالأجنحة الورقية تصير حقيقية يوم من الأيام.

في الليل، حين نام الأطفال، ظلّت الطائرات الورقية عالقة في أسلاك الكهرباء وعلى أسطح البيوت. صارت ترفرف مع الريح مثل راياتٍ صغيرة. ليان كتبت في دفترها:

"غزة مدينة بأجنحة من ورق. قد تتمزق، قد تحترق، لكنها دائمًا تعود لتصعد إلى السماء من جديد."

الفصل الخامس عشر: مقبرة الدموع

في صباحٍ ثقيلٍ برائحة التراب المبتلّ والدم، امتلأ الحيّ بصفوف من الرجال والنساء يسيرون خلف نعوشٍ ملفوفة بالأعلام. أصوات التكبير تختلط ببكاء الأمهات، والزغاريد تخرج ممزوجة بالدموع، كأنها تصرخ بالحياة حتى وهي تودّع الموتى.

المقبرة لم تعد مكانًا بعيدًا على أطراف المدينة؛ صارت قلبها النابض بالحزن. كل يوم تُفتح حفر جديدة، ويُزرع فيها شباب وصبايا وأطفال. ومع ذلك، كل قبر يصبح شاهدًا لا على الموت فقط، بل على أن غزة ما زالت حيّة رغم النزيف.

أمينة حملت بيدها وردتين حمراوين. وضعت واحدة على قبر جارهم الشاب، والثانية على قبر طفلة لم يتجاوز عمرها سبع سنوات. قالت وهي تهمس:

— الأرض ما بترتوي من دمنا، بس يمكن تتزين بالورد يومًا.

يوسف وقف مستندًا إلى عصاه، عيناه غارقتان بالدموع لكنه لم يبكِ بصوت. قال للشباب الذين كانوا يهيلون التراب:

— لا تحسبوا إنو القبر نهاية... القبر بداية جديدة، من هون رح يطلع جيل يعرف إنو الدم ما بيروح هدر.

ليان جلست عند زاوية المقبرة، دفترها الأزرق في حضنها. كتبت بخطٍ مرتجف:

"المقبرة هنا ليست مكان موت، بل مكتبة من الأرواح. كل قبر كتاب، كل شاهد عنوان، وكل دمعة حبر يكتب تاريخًا لا يمحوه الزمن."

آدم، الصغير، لم يفهم معنى الجنازة بالكامل. أمسك يد أمه وسألها بصوت خافت:

— ليش الكل عم يبكي؟

أمينة شدّت عليه وقالت:

— لأنهم فقدوا أحبابهم.

— بس ليش يكبّرو ويزغردوا؟

تنهدت أمينة:

— لأنهم بدهم يقولوا للموت: مش رح تغلبنا.

في المساء، حين عادوا من المقبرة، كان الحيّ صامتًا. لكن في القلوب ارتفعت عزيمة جديدة. وكأن دموع النهار سُقيت في الأرض، فأنبتت في صدورهم إصرارًا على البقاء.

البحر، الذي رأى الجنازة من بعيد، حرّك موجه بهدوء كأنه يشاركهم الحداد. وفي الليل، صار صوت الموج أشبه بنشيدٍ جنائزي، يردده على إيقاع النجوم:

"نموا بسلام... نحن من بعدكم نكمل الطريق."

الفصل السادس عشر: هدنة هشّة

بعد أيامٍ متواصلة من القصف، خيّم صمت غريب على غزة. لم يعد في السماء هدير الطائرات، ولا في الأرض ارتجاف الانفجارات. الناس خرجوا بحذر، كمن يضع قدمه على أرض قد تنفجر من جديد. قال يوسف وهو يرفع رأسه إلى السماء:

— يمكن هدوء... ويمكن فخ.

لكن حتى لو كان فخًا، لم يستطع الناس أن يمنعوا أنفسهم من التنفس بعمق. الهواء، ولو كان ممتزجًا برائحة البارود، بدا لهم أخف من قبل.

أمينة سارعت إلى إصلاح ما تبقى من مطبخها. جمعت قدورًا مكسورة ورتّبتها على نارٍ صغيرة. قالت لجارتها:

— بدنا نطبخ... الولاد صاروا يحلموا بالخبز.

ضحكت الجارة رغم الحزن:

— حتى الحلم صار طنجرة عدس.

الأطفال ملأوا الأزقة فجأة. خرج آدم بدميته القماشية، رمى الكرة مع أصدقائه. ركضوا وضحكوا، وكلما علت ضحكاتهم، ارتجفت قلوب الأمهات خوفًا من أن يسمعها الطيران فيظن أن غزة استعادت الحياة أكثر مما يجب.

ليان جلست على درج بيتها، دفترها الأزرق في حضنها، وكتبت:

"الهدنة ليست سلامًا. إنها خيط رفيع يربطنا بالوهم الجميل. لكنها مع ذلك، تمنحنا فرصة لنغسل وجوهنا من الغبار، لنقبّل أبناءنا بلا خوف أن تنقطع القبلة بانفجار."

في المستشفى، استغل الأطباء الهدوء ليلتقطوا أنفاسهم. بعضهم نام على الكراسي، وبعضهم أكمل خياطة الجروح المتراكمة. الممرضة حنان مسحت جبين طفلٍ نائم وقالت:

— لو الهُدن بتطول، كنا شفينا نصّ غزة.

يوسف جلس على سطح البيت المتهدم، يسبّح بمسبحته، يراقب الأفق. قال لأمينة:

— يا بنتي، هذا الصمت مثل زائر غريب... إذا أطال قعدته، يمكن نصير نحبه، وإذا راح بسرعة، رح يترك فراغ أكبر.

ردّت أمينة وهي تغطي إبريق الشاي:

— إحنا ما إلنا غير نتعلّق بأي خيط... حتى لو كان وهم.

وفي الليل، اجتمع الجيران على ضوء الشموع. بعضهم غنّى موالًا قديمًا، بعضهم حكى نكتة، وضحكوا بقلوب مترددة. لكنهم ضحكوا على كل حال. البحر كان هادئًا، موجه يلمع تحت القمر. بدا كأنه يبتسم أخيرًا بعد بكاء طويل.

غزة نامت تلك الليلة على هدنة هشّة. نامت وهي تعرف أن الصبح قد يعيد الطائرات، لكنها احتضنت لحظة السلام المؤقت كما تحتضن الأم طفلها، بقوة أكبر مما تحتمل، لأنها تعرف أن الغياب قادم لا محالة.

الفصل السابع عشر: خيانة الصمت

في ليالي الهدنة الهشّة، حين سكتت الطائرات قليلًا، كان الناس يلتفتون إلى شاشات صغيرة تعمل بالبطاريات أو على ضوء المولدات. يبحثون عن أخبار العالم، عن كلمةٍ صادقة، عن صوت يصرخ من أجلهم. لكنهم لم يجدوا سوى صمتٍ بارد، كلمات عامة عن "التوتر" و"الاشتباكات"، كأن ما يحدث ليس دمًا بل مجرد أرقام.

يوسف جلس أمام مذياعه القديم، حرك المؤشر بين المحطات، ثم أطلق تنهيدة طويلة:

— الدنيا كلها سامعة... بس متعامية.

أمينة ردّت وهي تعد الشاي على نارٍ صغيرة:

— كأنهم شايفين فيلم بعيد... مش شايفين إنو الفيلم دمنا.

ليان كتبت في دفترها الأزرق:

"العالم يرانا، لكن لا يمدّ يده. يكتبون عنا مقالات طويلة، بينما نحن نكتب وصايانا على جدران البيوت. الصمت خيانة، أخطر من الصاروخ."

في الحي، جلس الشباب حول موقد نار. أحدهم قال:

— تخيّلوا لو بلد بعيد حسّ فينا ساعة... يمكن يغير شي.

ضحك آخر بمرارة:

— بلد بعيد؟ يا زلمة، حتى القريب ما سمع!

ساد صمت ثقيل، ثم قال ثالث:

— بس إحنا لازم نضل نحكي... إذا سكتنا، بنكون متلهم.

في المستشفى، التقط الطبيب سليم أنفاسه بين عمليتين، نظر إلى الممر الممتلئ بالجروح والدموع وقال:

— العالم ساكت، بس كل جرح هون صرخة. يمكن نوصلها يومًا.

آدم، الصغير، سأل أمه وهو ينام:

— ماما... ليش ما بيساعدونا؟

أمينة شدته لصدرها، دمعت عيناها، لكنها حاولت أن تبتسم:

— يمكن لسا ما سمعونا... بس رح ييجي يوم يسمعوا صوتك، يا حبيبي.

وفي الخارج، كان البحر يتلاطم بحزن، يضرب صخوره كأنه يوبخ العالم كله:

"كيف تصمتون وأنا أصرخ كل ليلة؟ كيف تغلقون عيونكم والنجوم تشهد معي؟"

غزة فهمت الدرس جيدًا: الصمت ليس حيادًا... الصمت خيانة. ومع ذلك، لم تسكت. فالمدينة التي خانها العالم، ما زالت تحكي نفسها بنفسها، بالدم والدموع والكلمات.

الفصل الثامن عشر: أغنية بين الركام

بعد أن تعب الحي من البكاء والصمت، خرج صوت مختلف... صوت أغنية.

شاب اسمه عاصم جلس على حجرٍ مكسور يحمل عوده الخشبي القديم، أوتاره ممزقة لكنه جمعها بخيطان رفيعة. بدأ يعزف لحنًا بسيطًا، مترددًا في البداية، ثم ارتفع صوته شيئًا فشيئًا حتى غطّى على أنين الجدران.

اقترب الأطفال أولًا، جلسوا حوله بوجوه مغبرة وعيون متعبة. رفع عاصم صوته:

— يا غزّة يا وردة... مهما هدموكِ بتطلعي.

ليان سمعت الصوت من بعيد، حملت دفترها الأزرق وجاءت مسرعة. جلست بين الأطفال، كتبت وهي تنصت:

"الغناء في غزة ليس ترفًا. هو طوق نجاة. كل نغمة تُعزف هنا تُعيد بناء جدارٍ داخلي، لا تستطيع الطائرات هدمه."

أمينة وقفت قرب الباب، نظرت إلى آدم الذي بدأ يصفق مع الإيقاع. ابتسمت لأول مرة منذ أيام:

— سبحان الله... حتى الركام ممكن يصير مسرح.

يوسف، الجد، اقترب ببطء، استند إلى عصاه، وقال بصوتٍ مبحوح:

— الغُنا زمان كان سلاحنا الأول. وقت ما كنا مهجّرين بالخيام، كنا نغني عشان ما نموت من الحزن.

جلس بجوار الشاب وقال:

— غني يا ابني... خلي الجدران تسمع وتوقف.

وبينما يتردد اللحن في الأزقة، بدأت النساء يزغردن. أصواتهن اخترقت الليل، كأنها سهام ضوء وسط عتمة كثيفة. الأطفال رقصوا حول النار الصغيرة، والرجال صفّقوا بأيدٍ متعبة لكن صلبة.

حتى البحر تجاوب؛ موجه صار يتمايل على الإيقاع، يضرب الشاطئ برفق كطبلةٍ قديمة. وكأن المدينة كلها صارت فرقة واحدة، تعزف أغنية لا يعرفها العالم، لكنها تحفظ غزة من الانكسار.

وفي نهاية الليلة، كتبت ليان:

"وسط الركام، وجدت غزة لحنها. لم تغنِّ لتنسى، بل لتتذكر أنها حيّة. الأغنية هنا ليست فنًّا فقط، إنها اعلان وجود .

الفصل التاسع عشر: الأطفال يرسمون الشمس

بعد ليالٍ طويلة من الدخان، استيقظ الحي على فكرة غير متوقعة. الأطفال قرروا أن يواجهوا الركام لا بالبكاء ولا بالصمت، بل بالألوان.

أحضرت مريم علبة ألوان نصفها مكسور، جمعتها من تحت الأنقاض. آدم حمل دفاتر قديمة، مزّق صفحات بيضاء، وزّعها على أصدقائه. ليان ساعدهم بجلب طباشير من مدرستها المهدمة. قالت بابتسامة باهتة:

— اليوم رح نعمل جدارنا يضحك.

بدأ الأطفال يرسمون على الجدران المتشققة.

رسموا شمسًا كبيرة صفراء على جدار أسود من الدخان.

رسموا شجرة خضراء فوق حجرٍ مكسور.

رسموا بيتًا جديدًا بأبواب مفتوحة، وكتبوا فوقه: "سنعود".

آدم أصرّ أن يرسم طائرة، لكن ليس مثل التي تهدم البيوت. قال:

— هاي الطيارة بتجيب ألعاب وحليب... مش قنابل.

ضحك الأطفال وصفقوا له.

أمينة جلست على درجٍ قريب تراقبهم. دمعت عيناها وهي ترى ابنها يلوّن الحائط بفرحٍ أكبر من جرح ذراعه. قالت لجارتها:

— شايفة؟ هم صغار... بس بيعرفوا يخلقوا شمس من بين الغيوم.

يوسف اقترب ببطء، استند إلى عصاه، نظر إلى الرسومات وقال:

— الجدار هذا كان شاهد على موت... واليوم صار شاهد على حياة. أنتم صنعتوا معجزة يا ولاد.

ليان كتبت في دفترها الأزرق:

"حين يعجز الكبار عن إعادة البناء، يبدأ الأطفال بالترميم بألوانهم. في غزة، الشمس لا تُرسم لتزيين الورق فقط، بل لتكون وعدًا مؤكدًا أن النهار سيعود."

وبينما اكتمل الجدار بألوان زاهية، تجمّع الجيران ينظرون بدهشة. بعضهم ابتسم لأول مرة منذ أسابيع، وبعضهم صفق للأطفال كأنهم فنانين كبار. حتى البحر أرسل موجة صغيرة، حملت معها صدفة بيضاء رمت نفسها عند أقدامهم، كأنها هدية من الأفق البعيد.

في تلك اللحظة، بدا الركام أقل قسوة، والجدران أقل سوادًا. لأن الأطفال ببساطة... رسموا شمسًا جديدة لغزة

الفصل العشرون: العيد الناقص

جاء العيد إلى غزة مثقلاً برائحة الركام. لم يكن هناك زينة معلّقة في الشوارع، ولا مآذن تُزيّنها الأضواء كما في الأعوام الماضية. ومع ذلك، استيقظت المدينة في صباحه على تكبيرات خافتة، خرجت من حناجر متعبة لكنها مصمّمة أن تقول: "ما زلنا هنا."

ارتدى الأطفال ما استطاعوا جمعه من ثياب قديمة أو ملابس وُزّعت عليهم من تبرعات بسيطة. آدم لبس قميصًا أزرق واسعًا عليه بقعة صغيرة، لكن أمه رتّبت شعره ومسحت على وجهه وقالت:

— أنت أحلى طفل في الدنيا... حتى لو الدنيا كلها رماد.

ليان حملت دفترها الأزرق، وخرجت إلى الحي. رأت الأطفال يركضون بين البيوت المهدمة، بعضهم يضحك وبعضهم يبحث عن قطعة حلوى صغيرة. كتبت:

"العيد هنا ناقص، لكنه ليس غائبًا. هو طفل يبتسم رغم الحزن، هو أمّ تخبز كعكة بسيطة من الطحين القليل، هو جارة تطرق الباب لتقول: كل عام وأنت بخير... ولو بلا هدية."

في بيت أمينة، اجتمع الجيران. أحضر يوسف بضع تمرات قديمة، وزّعها على الأطفال كأنها كنز. ضحك وهو يقول:

— زمان كان العيد معنا ذهب وملابس جديدة... اليوم تمرتين بس، بس طعمهم أحلى من الدنيا كلها.

في الساحة الصغيرة، وقفت النساء يخطن من بقايا القماش دمى صغيرة. أعطينها للأطفال بدل الألعاب التي ضاعت تحت الركام. مريم احتضنت دميتها الجديدة وقالت:

— هاي أحلى هدية، لأنو عملتها إيدين أمّي.

آدم رفع دميته القماشية القديمة بجانب الجديدة، صرخ:

— صار عندي عيلة!

وبينما حاول الناس أن يضحكوا، ظلّت الغصّة في قلوبهم. فكل ضحكة تذكّرهم بمن غاب عن العيد هذا العام. مرّوا بالمقابر وزاروا أحبّاءهم، وضعوا الورود وقالوا:

— كل عام وأنتم شهداء... أنتم عيدنا الناقص.

البحر في ذلك اليوم بدا حزينًا لكنه صافي. موجه ارتطم بالشاطئ كأنه يهمس:

"قد يأتي العيد كاملاً يومًا... فاصبروا."

وفي دفترها كتبت ليان آخر سطور اليوم:

"العيد في غزة لا يكتمل بالثياب ولا بالزينة. العيد هنا صرخة حياة، إعلان تحدٍ للعالم: نحن نحتفل ولو كان البيت ركامًا، ولو كانت الموائد فارغة، لأن قلوبنا عامرة بما لا يستطيع القصف أن يدمّره."

الفصل الحادي والعشرون: الانتظار الطويل

في غزة، صار الانتظار أسلوب حياة.

ينتظر الناس الكهرباء كما ينتظرون الفجر، ساعة تضيء ثم تغيب.

ينتظرون فتح المعابر كأنها بوابات السماء، يعلّقون عليها آمال السفر واللقاء.

ينتظرون الهدنة وكأنها معجزة، ويخشون أن تنكسر قبل أن تبدأ.

أمينة جلست قرب النافذة، تنظر إلى الشارع الفارغ. قالت ليوسف:

— تعبت من الانتظار يا حاج... كل يوم بقول بكرا يفتحوا المعبر، بكرا يوصل الدوا، بكرا يرجعوا الأولاد من السفر. وما فيش بكرا.

يوسف ردّ وهو يسبّح بمسبحته:

— الدنيا واقفة يا بنتي... بس القلوب ماشية. واللي قلبه ماشي ما بينكسر.

ليان كتبت في دفترها الأزرق:

"نحن هنا معلّقون بين زمنين: زمنٍ انتهى مع أول انفجار، وزمنٍ لم يبدأ بعد. كل ما نملكه هو الانتظار الطويل، كأننا واقفون في محطة قطار لا يصلها القطار أبدًا."

في المستشفى، كان المرضى ينتظرون الدواء. عيونهم متعبة، لكن كل واحد منهم يتمسك ببصيص أمل أن يدخل ممرضة فجأة تحمل قنينة محلول جديدة. الممرضة حنان قالت لزميلتها:

— حتى المرضى صاروا يعرفوا أسماء الأدوية أكثر من الأطباء... من كثر ما بينتظروا.

آدم سأل أمه ببراءة:

— ماما، إمتى رح نرجع بيتنا زي الأول؟

أمينة لم تجد جوابًا، فاكتفت بأن قبّلته وقالت:

— قريب يا روحي... قريب.

لكن قلبها كان يعرف أن الانتظار سيطول.

في السوق، وقف خالد البائع أمام متجره شبه الفارغ. نظر إلى المارة وقال:

— كلنا قاعدين ننتظر... ننتظر خبزة، ننتظر كهربا، ننتظر أمل. بس ما حدش بيعرف إمتى يوصل.

حتى البحر كان يبدو وكأنه ينتظر شيئًا. موجه يقترب ثم يتراجع، كأنه يتهيأ لحمل سفينة لم تأتِ بعد. في صمته، همس للمدينة:

"الانتظار موجة طويلة... لكنها ستنكسر يومًا."

وفي الليل، حين جلسوا جميعًا حول قنديل صغير، قال يوسف:

— يا أولاد، يمكن الانتظار أصعب من القصف... القصف بيخلص بدقيقة، بس الانتظار يسرق العمر كله.

ساد صمت قصير، ثم أضاف:

— ومع هيك... ما في غيره سلاحنا اليوم. نصبر وننتظر... ويمكن يومنا ييجي

الفصل الثاني والعشرون: رسائل البحر

حين ضاقت الأرض وانقطعت الطرق، لم يبقَ للغزيين سوى البحر، يبوحون له بما يعجزون عن إرساله للعالم. صار الشاطئ في المساء أشبه ببريدٍ كبير، كل واحد يحمل ورقة أو ورقتين، يكتب عليها ما في قلبه ثم يضعها في زجاجة فارغة ويقذفها للموج.

آدم كتب أول رسالة في حياته. حمل قلماً صغيرًا وورقة من دفتر أخته ليان، وكتب بخطه المتعرج:

"أنا آدم من غزة. بدي أعيش بسلام. إذا لقيتوا رسالتي، قولوا للعالم يسمع صوتنا."

ثم وضع الورقة في زجاجة ماء فارغة، وألقاها في البحر بكل قوته. صفق الأطفال له وكأنه بطل.

ليان كتبت بدورها:

"إلى من يلتقط هذه الرسالة: نحن لسنا أرقامًا في نشرات الأخبار. نحن وجوه، أسماء، أحلام. اكتبوا عنا كما نحن، لا كما ترونا من بعيد."

رمَت زجاجتها، وبقيت تراقبها وهي تبتعد مع الموج، كأنها تودع جزءًا من قلبها.

أمينة كتبت لأخيها في الضفة:

"أخي سامر، لو وصلتك هذه الزجاجة، اعرف أني ما زلت أتنفس، وأن غزة رغم الدمار ما زالت أمًّا كبيرة تحتضن أبناءها."

حتى يوسف، الجد، لم يتردد. كتب بخط يده المرتجف:

"إلى العالم... هنا غزة. ما متنا. ولن نموت."

ثم ألقى بزجاجته وهو يبتسم:

— البحر أصدق من البوستات.

وبينما كانت الأمواج تحمل الزجاجات بعيدًا، جلس الجميع على الرمل يتأملون الأفق. البحر بدا كأنه ساعي بريد مخلص، يتعهد بنقل الرسائل إلى حيث لا تصل الطائرات ولا المعابر.

كتبت ليان في دفترها الأزرق:

"قد لا تصل رسائلنا إلى أيدٍ بشرية، لكنها تصل إلى قلب البحر. والبحر لا ينسى. البحر يومًا سيعيد صدى أصواتنا إلى كل العالم."

وفي تلك الليلة، ظلّ الموج يتلاطم بلطف، كأنه يردد رسائل الغزيين بصوتٍ لا يسمعه إلا من يضع قلبه على الشاطئ

الفصل الثالث والعشرون: أصوات تحت الركام

لم يكن الركام في غزة مجرد حجارة صامتة، بل كان يخفي تحته أنفاسًا، صرخات، وأحيانًا همسات ضعيفة تتحول إلى معجزة. كل انفجار يخلّف وراءه جدرانًا ساقطة، لكن بين تلك الجدران، تبقى الحياة تقاوم.

في أحد الأيام، سمع الجيران صوتًا خافتًا تحت أنقاض بيتٍ مدمّر. ركضوا جميعًا، رفعوا الحجارة بأيديهم العارية، صرخوا:

— في حدا عايش! اسمعوا الصوت!

كان الصوت طفوليًا، مبحوحًا:

— أنا هون... ساعدوني.

آدم شدّ ذراع أمه وقال بعينين دامعتين:

— ماما، هو زيه زيي... بده يطلع.

تجمّع الرجال، ومعهم يوسف يستند إلى عصاه، يمدّ يده ليساعد رغم ضعفه. كل حجر يُرفع كان يقرّبهم من الحياة. بعد ساعات، أخرجوا طفلًا مغطى بالغبار، عيونه مفتوحة رغم التعب. علا التكبير والزغاريد، وكأن غزة ولدت من جديد في تلك اللحظة.

الطبيب سليم وصل مسرعًا، حمل الطفل إلى سيارة الإسعاف، وقال بصوتٍ متأثر:

— كل صوت تحت الركام شهادة... شهادة إنو لسه في روح ما استسلمت.

ليان كتبت في دفترها الأزرق وهي تبكي:

"أصوات تحت الركام أقوى من كل نشرات الأخبار. صوت ضعيف يهمس (أنا عايش) يهزّ مدينة كاملة، ويمنحنا سببًا لنستمر."

أمينة جلست قرب الطفل بعدما تعافى قليلًا، أعطته قطعة خبز وقالت:

— أنت مش بس ناجي... أنت شهيد مؤجل، وحلم جديد لغزة.

وفي الليل، حين خيّم الصمت من جديد، ظلّت آذان الغزيين مشدودة إلى الركام. كل حجر قد يخفي تحته قلبًا نابضًا. كل صرخة صغيرة قد تكون بداية فصل جديد من الحياة.

البحر أيضًا بدا كأنه يصغي، أمواجه هدأت كطفلٍ يضع أذنه على صدر أمّه ليسمع دقات قلبها. همس للمدينة:

"كل صوت يخرج من الركام، هو نغمة جديدة في أغنيتكم التي لا تموت.

الفصل الرابع والعشرون: الليل الأطول

في غزة، هناك ليالٍ لا تشبه أي مكان آخر. الليل لا يُقاس بالساعات، بل بعدد الانفجارات، بعدد القلوب التي تبقى معلّقة، بعدد الأطفال الذين لا يغمضون عيونهم إلا وهم يحتضنون أمهاتهم.

تلك الليلة كانت من الليالي الأطول. لم يكن هناك قصف مباشر، لكن الخوف ظلّ يرفرف فوق البيوت المهدّمة مثل طائرٍ أسود. كل نسمة هواء كانت تشبه صفير صاروخ، وكل صوت معدني يوهمهم أن الطائرات ما زالت تحوم.

أمينة جلست وسط الغرفة المظلمة، تحتضن آدم. قالت له بهدوء:

— نام يا حبيبي... الطيارات راحت.

لكن آدم لم يصدق. عيناه ظلتا مفتوحتين، تراقبان السقف:

— يمكن ترجع... يمكن تنزل علينا وإحنا نايمين.

ليان جلست على الدرج الخارجي تحمل دفترها الأزرق. حاولت أن تكتب، لكن يدها ارتجفت. فبدل الكتابة، راحت تروي للأطفال حكاية عن فارسٍ صغير يحمي مدينته من وحوش السماء. أصغى الأطفال بقلوب واجفة، وكأن الحكاية ستغطي على خوفهم.

يوسف، الجد، أشعل قنديل الزيت. جلس يحكي للرجال عن زمنٍ بعيد، عن نكبةٍ سابقة وليالٍ مشابهة مرّت بهم. قال بصوتٍ متعب:

— يا أولاد... الليل مهما طال، بيجي بعده صبح. صدقوني، شفتها بعيني مرّات.

في المستشفى، بقي الطبيب سليم ساهرًا. لم يكن هناك قصف في تلك الساعات، لكن الممرات مليئة بجروح قديمة تحتاج رعاية. نظر إلى الممرضات وقال:

— الليل الأطول مش هو اللي فيه انفجارات... هو اللي فيه صمت يخوف أكتر من الصوت.

البحر كان مختلفًا تلك الليلة. أمواجه لم تكن عالية، بل بطيئة، كأنها تتنفس مع المدينة. صوته يشبه الهمس:

"اصبروا... حتى الليل الأطول له آخر."

وعند الفجر، حين بدأت خيوط الضوء تخترق الغيوم، شعر الناس كأنهم نجاو من معركة غير مرئية. لم يسقط صاروخ، لكن القلوب خاضت حربًا كاملة مع الخوف.

ليان كتبت في دفترها بعد أن تنفست الصباح:

"في غزة، الليل لا يُقاس بالظلام، بل بالقلوب التي تصمد. والليل الأطول دائمًا ينهزم أمام أول خيط شمس."

الفصل الخامس والعشرون: أمل معلّق

في غزة، الأمل ليس رفاهية، بل حبلٌ يتشبث به الناس كي لا يسقطوا في هاوية اليأس. لكنه أملٌ هش، معلّق مثل غسيلٍ قديم على حبالٍ متهالكة، يتأرجح مع كل ريح قاسية لكنه لا يسقط تمامًا.

آدم جلس قرب نافذته المكسورة، ينظر إلى السماء الرمادية. قال لأمه:

— ماما، أنا متأكد إنو بكرا رح يجي يوم نلعب فيه من غير ما نخاف.

ابتسمت أمينة رغم أن قلبها مثقل:

— إن شاء الله يا روحي... بكرا جاي.

ليان كتبت في دفترها الأزرق:

"الأمل عندنا ليس وعودًا كبيرة، بل تفاصيل صغيرة: عودة الكهرباء ساعة، ابتسامة طفل خرج حيًا من تحت الركام، أو شجرة لوز أصرّت أن تزهر رغم الدمار."

في السوق، كان خالد البائع يعلّق على واجهة متجره لافتة صغيرة كتب عليها: "اليوم موجود خبز"، مع أنه لم يبقَ إلا بضع أرغفة. قال لجاره:

— حتى الكلمة أمل... تخلي الناس يعرفوا إنو في شي لسه ممكن ينوكل.

يوسف، الجد، جلس وسط أحفاده وقال لهم:

— يا أولاد، الأمل مثل الزرع... إذا سقيناه دمعنا، بيكبر. إذا تركناه، بيموت.

ثم أخرج من جيبه بذور زيتون صغيرة، وزّعها عليهم وقال:

— كل واحد يحتفظ ببذرة... يمكن بكرا نزرعها مع بعض.

في المستشفى، وقفت الممرضة حنان أمام طفلٍ يتنفس بصعوبة. أمسكت يده وقالت:

— اصبر يا بطل... رح تتحسّن.

وفي عينيها بريق أمل معلّق على معجزة صغيرة اسمها الصمود.

حتى البحر حمل معه ذلك الأمل. أمواجه في ذلك اليوم لم تكن غاضبة، بل بدت كأنها تحمل رسائل غير مرئية:

"قد يطول الليل... لكن شمسكم بانتظاركم. تمسكوا بي، فأنا شاهد على صبركم."

وفي نهاية اليوم، كتبت ليان:

"نعيش على أمل معلّق، لكنه رغم ضعفه، أقوى من كل قصف. لأنه الأمل هو الشيء الوحيد الذي لا يستطيع أحد أن يحاصره.

الفصل السادس والعشرون: أصوات المدارس المهدّمة

لم يبقَ في الحي مدرسة على حالها. بعضها صار أكوامًا من الحجارة والحديد، وبعضها تحوّل إلى ملاجئ للنازحين. ومع ذلك، ظلّت أصوات الأطفال تتردّد بين الجدران المهدّمة كأنها تصرّ على أن التعليم لا يموت.

في الصباح، جمعت ليان الأطفال حولها في ساحة صغيرة بجانب مدرستها المهدّمة. أمسكت دفترها الأزرق وقالت:

— اليوم رح نكتب على الركام نفسه... نخليه كتاب مفتوح.

جلست مريم على حجر كبير، كتبت حروف الأبجدية بالطبشور الأبيض. آدم رفع يده بفخر وهو يردد:

— أ... ب... ت...

ضحك الأطفال، وصار كل واحد يتسابق في ترديد الحروف.

أمينة أحضرت دفاتر قديمة وجمعتها للأطفال. وزّعت أقلامًا قصيرة كانت تحتفظ بها في صندوق صغير. قالت:

— القلم اللي بيوصل كلمة، أهم من ألف سلاح.

يوسف وقف يراقب المشهد، عينيه تلمعان:

— الله يرضى عنكم... هيك غزة بتعيش. مش بالبيوت بس، بل بالكلمة.

في وسط الحطام، كتب الأطفال على جدار أسود من الدخان:

"نحن نتعلم رغم كل شيء."

الطبيب سليم، الذي مرّ بالمكان في طريقه إلى المستشفى، توقّف وقال:

— أنتو مش بس أطفال... أنتو معلمينا كلكم.

حتى البحر سمع أصواتهم. موجه حملها بعيدًا، كأنه ينشر الدرس في كل الأفق:

"غزة مدينة تكتب دروسها على الركام، وتلقّن العالم أن العلم أقوى من الحرب."

ليان دوّنت في دفترها الأزرق:

"أصوات المدارس المهدمة لا تُطفأ. كل حجر صار سبّورة، كل شارع صار صفًا، وكل طفل معلمًا صغيرًا يحمل مستقبلًا على كتفيه."

وفي المساء، حين عاد الأطفال إلى بيوتهم المكسورة، ظلّت أصواتهم تتردّد في الأزقة، كأن المدرسة لم تُقصف يومًا.

الفصل السابع والعشرون: أمهات الفقد

في شوارع غزة، يمكن أن تميّز الأمهات اللواتي فقدن أبناءهن من ملامح وجوههن. وجوه متعبة، لكن فيها نور غريب، نور يشبه جمرة تحت الرماد. هنّ لسن مجرد نساء ثكالى، بل أعمدة مدينة مهدّمة.

أمينة زارت جارتها أم خالد، التي فقدت ولدها في الانفجار الثاني. وجدتها جالسة قرب صورة كبيرة له، عيناها دامعتان لكنها لم تنهار. قالت لها:

— أنا ما بكيتش يا أمينة... دموعي صارت ملح البحر.

أمينة أمسكت يدها:

— بس قلبك موجوع.

أم خالد تنهدت:

— موجوع آه... بس ابني راح وهو واقف، وأنا رح أضل واقفة.

في جنازة أخرى، رفعت أم شهيد يديها للسماء وقالت أمام الناس:

— خدو ولدي، بس اتركولي أرضي.

كان صوتها أقوى من كل الرجال الذين وقفوا حولها.

ليان كتبت في دفترها الأزرق:

"أمهات الفقد في غزة لا ينهزن. كل واحدة منهن جدار آخر، يمنع المدينة من السقوط. يدفنّ أبناءهن، ثم يقفن ليكملن الحياة لأجل الباقين."

آدم، الصغير، سأل أمه يومًا:

— ماما، ليش أم خالد ما بتضحك؟

أمينة أحنَت رأسها وقالت:

— لأنها ضحكتها راحت مع ابنها... بس رح ترجع يومًا لما تشوف ولادكم بخير.

يوسف نظر إلى النساء اللواتي وقفن في ساحة الحي بعد تشييع الجثامين، وقال:

— غزة مش بس مدينة محاصرة... غزة أم كبيرة، وهاي الأمهات قلوبها. إذا وقفن، الكل بيوقف.

حتى البحر كان شاهدًا. في المساء، حين جلست أم خالد قرب الشاطئ، سمعت الموج يهمس لها:

"ابنك صار نجمًا في السماء، وأنا بحمل صوته كل ليلة وأردده إليك."

رغم الألم، لم تستسلم الأمهات. كنّ يخبزن الخبز للجيران، يعلّمن الأطفال في الأزقة، يغنين للصغار ليناموا. حوّلن حزنهن نارًا دافئة تحمي من بقي حيًا.

الفصل الثامن والعشرون: خبز من الرماد

في غزة، حتى الخبز صار معركة يومية. الأفران الكثيرة التي ملأت الشوارع لم يبقَ منها سوى أطلال سوداء، ورائحة الحريق ما زالت عالقة في الهواء. ومع ذلك، لم يتوقف الناس عن البحث عن طريقة ليصنعوا لقمة تعينهم على البقاء.

أمينة جمعت قطع خشب متفحمة من بيتها المهدّم، وضعتها في صفيحة حديدية وحولتها إلى موقد صغير. عجنت ما توفر لديها من دقيق قليل بالماء والملح فقط. قالت لآدم وهي تضع العجين على صاج معدني:

— هذا خبزنا اليوم... من الرماد نطلع حياة.

اقترب الجيران، كل واحد جلب شيئًا: حفنة طحين، قطرة زيت، أو حتى ملح قليل. النساء التففن حول النار الصغيرة، وجوههن متعبة لكن عيونهن تلمع كلما انتفخت رغيفات الخبز.

يوسف، الجد، رفع قطعة خبز ساخنة بيده المرتجفة وقال:

— والله يا ولاد، هذا الخبز أطعم من كل موائد الدنيا... لأنه خبز صبر.

آدم أكل لقمة وقال مبتسمًا:

— طعمه فيه نار... بس نار حلوة.

ضحك الأطفال من حوله، وشعروا للحظة أن الحصار انكسر أمام رغيف بسيط.

ليان كتبت في دفترها الأزرق:

"في غزة، الخبز ليس مجرد طعام. إنه إعلان تحدٍ، دليل على أن الحياة قادرة على النهوض حتى من تحت الرماد. كل رغيف يخرج من بين الدخان شهادة أن الإنسان أقوى من الموت."

وفي المساء، حين توزّع الخبز بين العائلات، امتلأت الأزقة برائحة ساخنة، رائحة حياة وسط الخراب. بعض الأطفال حملوا أرغفتهم الصغيرة كأنها هدايا ثمينة.

حتى البحر شمّ الرائحة، موجه ارتطم بالشاطئ كأنه يصفّق. همس للمدينة:

"من الرماد تصنعون خبزًا... ومن الدمار تصنعون غدًا."

ذلك اليوم، لم يكن الخبز مجرد طعام، بل كان معجزة صغيرة ولدت من قلب النار.

الفصل التاسع والعشرون: وجوه النازحين

لم تعد البيوت في غزة بيوتًا، كثير منها صار ركامًا أو جدرانًا بلا سقف. لذلك امتلأت المدارس المهدّمة والساحات بالخيام. وجوه النازحين هناك تحكي قصصًا أكثر من أي كتاب.

أمينة حملت آدم بيدها وذهبت إلى مدرسة قديمة تحولت إلى ملجأ. كانت الغرف مكتظة، عشرات العائلات تتقاسم مساحة صغيرة، كل ركن صار بيتًا. علّقوا بطانيات ممزقة ليفصلوا بين العائلات، لكن الأصوات تداخلت: بكاء طفل هنا، أنين عجوز هناك، وضحكة قصيرة في زاوية أخرى تحاول أن تنجو.

ليان مشت بين الخيام تحمل دفترها الأزرق، تسجّل ما تراه. كتبت:

"النازحون لا يحملون بيوتهم معهم، بل يحملون وجوهًا أنهكها التعب. وجوه تبحث عن مكان لتستريح، لكنها تصر أن تبقى شامخة رغم الغبار."

في إحدى الخيام، جلست أم خالد التي فقدت زوجها. حولها خمسة أطفال، ينامون على فرش بالية. قالت لليان:

— ما بدي بيت جديد... بس بدي سقف ما يخوف ولادي.

يوسف جلس مع رجال نازحين آخرين، يشربون شايًا على موقد صغير. قال:

— هذا مش أول تهجير... من زمان خرجنا من بيوتنا بخيام. الفرق الوحيد إنو كل مرة بيقولوا مؤقت... بس بيطول.

هزّ أحدهم رأسه وأضاف:

— بس رغم هيك، كل مرة منرجع نقف.

آدم ركض بين الأطفال في الساحة الترابية، لعبوا بكرة من قماش قديم. ضحكوا رغم الألم، ووجوههم الصغيرة أضاءت المكان للحظة. أمينة نظرت إليه وهمست:

— يمكن همّ اللي بيعلمونا كيف نعيش.

حتى البحر سمع حكاياتهم. موجه اقترب من الشاطئ كأنه يحاول أن يعانق المدينة كلها. همس للنازحين:

"أنتم بلا بيوت... لكنكم لستم بلا أرض. الأرض ما زالت هنا، تنتظركم."

وفي الليل، حين نام الجميع في الخيام، ظلّت العيون ساهرة. ليس فقط خوفًا من قصف جديد، بل من بردٍ يتسلل، ومن ذاكرة ثقيلة لا تنام. ومع ذلك، بقيت الوجوه، رغم الشحوب، تحمل ملامح الصمود.

الفصل الثلاثون: مدينة بلا أبواب

غزة... مدينة محاطة بالأسلاك والجدران من كل الجهات. من الشرق والجنوب معابر مغلقة، ومن الغرب بحرٌ محاصر، ومن السماء طائرات لا تفارقها. مدينة كاملة تعيش وكأنها بيت كبير بلا أبواب.

يوسف جلس على سطح البيت المهدّم وقال بحزن:

— يا أولاد، تخيّلوا إنو الواحد يعيش عمره كله بغرفة مسكّرة... لا يطلع ولا يدخل. هاي غزة.

ليان كتبت في دفترها الأزرق:

"غزة مدينة بلا أبواب، بلا نوافذ، بلا ممرات للهروب. هنا يتعلم الناس أن يتنفسوا من شقوق صغيرة، أن يمدوا أرواحهم عبر الكلمات والبحر والسماء، لأن الأبواب أُغلقت جميعها."

أمينة حملت آدم إلى المعبر في يومٍ قيل إنه سيفتح. وقفت ساعات طويلة مع آلاف آخرين، كل واحد يحمل حقيبة صغيرة وأملاً أكبر من جسده. لكن حين أُغلق الباب فجأة، عمّ الغضب والبكاء. قالت أمينة وهي تضم ابنها:

— حتى الهوا محسوب علينا... حتى السفر صار حلم.

في السوق، سخر خالد وهو يبيع بضع خضار ذابلة:

— غزة صارت مثل زجاجة محكمة الغلق... إذا ما انكسرت، الناس تختنق جوّا.

الأطفال رسموا على الجدران المهدّمة أبوابًا ملوّنة. بابًا أزرق يفتح على البحر، بابًا أخضر يفتح على حديقة، وبابًا أصفر يفتح على الشمس. قال آدم بابتسامة:

— إذا ما في أبواب حقيقية... بنرسمها ونفتحها بخيالنا.

يوسف نظر إلى الرسومات وقال:

— الله يخليكم... أنتوا الأبواب اللي ما بيقدروا يسكروا عليها.

حتى البحر شعر بالخذلان. أمواجه ترتطم بالسياج البحري وتعود خائبة. همس للمدينة:

"أنا بابكم الوحيد، ومع ذلك يقفلونني. لكني سأبقى أطرق حتى ينكسر القيد."

في الليل، حين خيّم الصمت، بدت غزة كقلبٍ محاصر في صدرٍ ضيق. لكن هذا القلب ظلّ ينبض، يطرق جدرانه من الداخل بلا توقف، يصرخ:

"افتحوا الأبواب... الحياة ما بتنحبس."

الفصل الحادي والثلاثون: تحت المطر

كان الشتاء بطيئًا في قدومه، لكن في تلك الليلة أخيرًا تساقط المطر على غزة. لم يكن مطرًا عاديًا، بل بدا كأن السماء نفسها تبكي مع المدينة. قطرات غزيرة انهمرت فوق الركام، فغسلت الغبار عن الحجارة، وتركت خطوطًا لامعة على الجدران السوداء من أثر القصف.

أمينة خرجت إلى ساحة البيت المهدّم، رفعت يديها للسماء وقالت:

— أخيرًا شي يغسل وجعنا غير الدموع.

آدم ركض تحت المطر، يضحك رغم البرد. رفع دميته القماشية إلى السماء وقال:

— شوفي يا ماما، حتى دميتي عم تتحمم!

ضحك الأطفال حوله، وبدوا للحظة وكأنهم يحتفلون بعيد لم يأتِ.

ليان جلست على درجٍ مبتلّ، دفترها الأزرق بين يديها. قطرات المطر لطخت الحبر، فصارت الكلمات أشبه بدموع مكتوبة. كتبت:

"المطر في غزة لا ينزل على شوارع نظيفة ولا حدائق خضراء، بل على دماء جافة وركام متراكم. ومع ذلك، نشعر أنه يغسل قلوبنا قليلًا، يترك لنا شعورًا أن السماء معنا."

يوسف رفع رأسه، قطرات المطر تتساقط على وجهه المجعّد. تمتم:

— هذا المطر أحلى من ألف هدنة... لأنه صادق. ما في وراه سياسة ولا خداع.

في المخيمات، ركض الأطفال حفاة في الطين، صنعوا كرات طينية ورموا بها بعضهم، ضحكوا بأعلى أصواتهم. النساء ملأن الجرار بماء المطر، قلن إنه أنقى من كل ما يصل عبر الأنابيب الملوثة.

البحر استقبل المطر بعناق. أمواجه امتزجت بالقطرات، وصار صوته أعذب، كأنه يغني مع السماء. همس للمدينة:

"ها أنا والسماء معكم... نغسلكم معًا."

في تلك الليلة، نامت غزة على أصوات المطر، وليس على أصوات الانفجارات. كان ذلك وحده كافيًا ليمنحهم شعورًا نادرًا بالسكينة، ولو لليلة واحدة.

...

الفصل٣٢ – ما بعد الرماد

لم يكن الانفجار حدثًا يُختصر في صوتٍ هائل أو دخانٍ أسود، بل كان زلزالًا داخليًا حطم يقين البشر قبل أن يفتت الحجر.

كانت المدينة، تلك التي طالما نامت على أكتاف الجبل، قد استيقظت على فجيعةٍ جعلت الليل والنهار سواء.

في الساحة، غطّى الغبار ملامح كل شيء، فلم يعد أحد يميز بين الحيّ والميت، بين الضحية والجلاد.

كانت الأجساد الممددة في الطرقات صامتة، لكن صمتها كان أكثر ضجيجًا من كل أصوات الانفجار.

يوسف وقف في وسط الركام، مذهولًا، لا يعرف إن كان ما حوله حقيقة أم كابوس طويل.

في داخله سؤال يتردد بلا جواب:

"أهو موت المدينة، أم موتنا نحن بداخلها؟"

تقدّم خطوات بطيئة فوق الأنقاض، كمن يسير على ذاكرته، على طفولته، على بقايا أحلامه.

كل حجر مكسور بدا له كصفحة من كتابٍ مزّقته يد غاشمة، وكل وجه مفقود بدا كجملةٍ ناقصة لا تكتمل.

قريبًا منه جلست سلمى، تحمل دفتراً مهترئًا خرج من بين الرماد كمعجزة.

كتبت بخطٍ متقطع:

"لم يعد ثمة فرق بين موتٍ يأخذ الجسد، وموتٍ يسكن الروح. الانفجار جعلنا ندرك أن الحياة لا تُعطى مرة واحدة، بل تُسلب منا كل يوم."

كانت تكتب وكأنها تُقاوم، وكأن الكلمة وحدها بوسعها أن تحفظ للإنسانية أثرًا، بعد أن تحولت الشوارع إلى مقابر.

مرت سيارة إسعاف، تباطأت كأنها تخشى الاقتراب من الخراب. التقط رجالها أجسادًا بلا أسماء، بينما بقيت أسماء أخرى تائهة بين صرخات الناجين.

قال يوسف وهو ينظر إلى المشهد:

– "هل نكتب عنهم أم نصمت؟"

رفعت سلمى رأسها من دفترها، نظرت إلى الأفق الملطخ بالرماد، وقالت:

– "إن صمتنا سنموت مرتين؛ مرة بالانفجار، ومرة بالنسيان. أما الكتابة فهي مقاومة، هي صرخة أخرى في وجه الخراب."

اقترب منها يوسف، جلس بجوارها فوق صخرةٍ لا تزال تنزف حرارةً، ثم همس:

– "لكن من سيقرأ؟ ومن سيهتم؟"

ابتسمت ابتسامة باهتة، وقالت:

– "لا يهم. ربما لا يقرأ أحد اليوم، لكن الكتابة كالبذور؛ قد تنام في الأرض أعوامًا، ثم تُنبت فجأة في زمن آخر. المهم أن نزرع."

رفع يوسف رأسه إلى السماء. كانت الغيوم الرمادية تشتبك مع الدخان المتصاعد، حتى بدا المشهد وكأن السماء نفسها انفجرت.

قال ببطء، كمن يعلن ميثاقًا جديدًا:

– "الانفجار ليس النهاية... بل البداية. بداية السؤال: كيف نعيش بعد أن تحطّم كل شيء؟"

ساد الصمت. لكنه لم يكن صمت موت، بل صمت انتظار. انتظار لولادةٍ قاسية، ولحياة جديدة تُبنى فوق الرماد.

وفي قلب يوسف وسلمى، كان هناك يقين خفيّ:

أن ما دمّرته القنابل قد تعيد الكلمات بناءه، وأن ما أطفأته النار قد تُشعله المحبة من جديد

الفصل ٣٣ – وجوه تحت الغبار

في الصباح التالي، لم يكن الفجر يشبه الفجر.

الشمس ارتفعت خجلى، باهتة، كأنها تخجل من أن تضيء مدينةً تلطخت بالدمار.

كان كل شيء ساكنًا، حتى العصافير التي اعتادت أن توقظ البيوت صمتت، وكأنها حدادًا.

تجول يوسف في الأزقة التي لم تعد أزقة، بل ممرات ضيقة بين جدران منهارة.

كل وجه كان يخرج من تحت الغبار بدا وكأنه سؤال جديد:

"هل ما زلنا بشرًا بعد كل هذا؟"

رأى طفلة صغيرة، لم تتجاوز العاشرة، تحمل دمية نصف محترقة وتبحث عن أمها.

اقترب منها وسألها:

– "أين بيتك يا صغيرة؟"

أشارت إلى فراغٍ هائل خلفها، وقالت ببراءة مفجعة:

– "هنا... لكن البيت نام."

ارتجف قلب يوسف. أدرك أن الانفجار لم يدمر الحجر فقط، بل أعاد تعريف الكلمات. فالبيت صار نومًا، والأم صارت صدى، والطفولة صارت رمادًا تمشي على قدمين.

في تلك الأثناء، كانت سلمى تجمع شهادات الناجين في دفترها.

كل جملة كانت تُكتب بدموع، لا بحبر.

رجل مسن قال لها:

– "لم أخف من الموت... بل من فكرة أن يختفي اسمي بلا أثر."

امرأة شابة همست:

– "الانفجار أخذ زوجي وترك لي صرخة معلّقة في حنجرتي."

كتبت سلمى بخط مرتجف:

"الكلمات هي قبور من لا يجدون قبرًا."

جلس يوسف بجانبها وقال:

– "هل تظنين أن الكتابة قادرة على إنقاذنا؟"

أجابته:

– "لن تُعيد الموتى، لكنها ستعيد إلينا إنسانيتنا. وإذا فقدناها، فلن نكون سوى شظايا مثل الحجارة المبعثرة."

في المساء، اجتمع عدد من الناجين حول نار صغيرة أشعلوها في ساحة مهدمة.

كان البرد ينهش الأجساد، لكن ما جمعهم لم يكن الدفء وحده، بل الحاجة إلى أن يشعروا أنهم ما زالوا معًا.

قال يوسف بصوت مبحوح:

– "يجب أن نروي ما حدث. إذا صمتنا، سيموت الانفجار مرة أخرى فينا."

رفعت سلمى دفترها عاليًا وقالت:

– "هذا سيكون سلاحنا. نحن بلا جدران، لكننا بالكلمة نستطيع أن نبني وطنًا جديدًا."

ارتفعت العيون نحو الدفتر كأنه شعلة.

وفي لحظة غريبة، شعر الجميع أن تحت الرماد هناك بذور تنتظر المطر، وأن المدينة الميتة قد تبدأ بالتنفس من جديد

الفصل ٣٤ – نواة من الضوء

لم يكن الليل في تلك الليلة عاديًا.

السماء فوق المدينة بدت مثقوبة كجسدٍ مليء بالجراح، لكن النجوم أصرّت على الظهور، كأنها تقول: "ثمة نور لا تطفئه الانفجارات."

جلس الناجون حول النار التي أشعلوها في الساحة، وجوههم نصف منيرة ونصف غارقة في الظل.

كان في الصمت ما يشبه الصلاة، ثم بدأ يوسف بالكلام:

– "لا يمكن أن نظل هكذا. الرماد يزداد، والخوف يزداد، وإذا لم نتحرك، سيبتلعنا الانفجار مرة أخرى."

تطلعت إليه سلمى بعينيها المتعبتين وقالت:

– "وماذا نستطيع أن نفعل؟ نحن حفنة من الناجين، بلا بيت، بلا سند."

رد يوسف بثبات لم يعرفه من قبل:

– "نستطيع أن نكون بيتًا لبعضنا. إذا فقدنا الجدران، نصنعها من قلوبنا. إذا فقدنا الكتب، نكتب على الحجارة. إذا فقدنا الخبز، نتشارك ما بقي من فتات. المهم أن لا نترك أنفسنا نهوي في صمتٍ آخر."

صمت الجميع قليلًا، ثم تقدّم رجل مسن وقال بصوت مبحوح:

– "أنا كنت نجارًا... أستطيع أن أعيد صنع الطاولات والكراسي من الخشب المكسور."

وأضافت امرأة شابة:

– "وأنا كنت معلمة. أستطيع أن أعلّم أطفالنا في العراء، حتى لا يسرق الانفجار لغتهم."

ابتسم طفل صغير وقال:

– "وأنا أجمع الحجارة الملونة... يمكن أن نبني بها ألعابًا."

سلمى رفعت دفترها، وقالت:

– "وهذا الدفتر سيكون سجلنا. سنكتب أسماءنا، قصصنا، أحلامنا. لن نمحو من جديد."

فجأة، شعر الجميع أن شيئًا صغيرًا قد وُلد في تلك اللحظة؛ لم يكن مؤسسة ولا حزبًا، بل كان نواة من الضوء، قوامها التعاون، ولغتها البقاء، ورمزها الكتابة.

اقترب يوسف من النار، رمى فيها شظية معدنية التقطها من بين الركام، وقال:

– "هذا الحديد كان أداة قتل، أما نحن فسنجعل من كل بقايا الانفجار أداة حياة."

ارتفعت العيون نحو السماء، والنجوم التي كانت تخترق ثقوب الظلام بدت أقرب، كأنها تبارك مولد مجتمع صغير فوق الرماد

الفصل ٣٥ – الامتحان الأول

مع بزوغ الفجر التالي، لم تكن الساحة كما تركوها.

عجلات سياراتٍ عسكرية داست على الرماد، وأصوات أوامرٍ صارخة اخترقت الصمت.

وقف الجنود عند مدخل المدينة المدمَّرة، يفتشون العيون قبل أن يفتشوا الأجساد.

تقدم ضابط بوجهٍ بارد، نظر إلى النار الصغيرة التي أشعلها الناجون وقال بسخرية:

– "هل تظنون أنكم ستقيمون دولة من الرماد؟"

ارتجف البعض، وانسحب آخرون إلى الخلف، لكن يوسف تقدّم خطوة وقال:

– "لا دولة لنا. نحن فقط نحاول أن نعيش."

ابتسم الضابط بسخرية أكثر قسوة:

– "الحياة ليست من حقكم. الناجون مجرد عبء. الأوامر واضحة: من تبقى، يُرحَّل أو يُسكَت."

في تلك اللحظة، ضغطت سلمى على دفترها بكلتا يديها، كأنها تحمي طفلها الأخير.

قالت بصوتٍ مسموع:

– "لن نصمت. إذا قتلتمونا، ستبقى الكلمات. إذا صادرتم دفاتري، سأكتب على الجدران المهدمة. وإذا هدمتم الجدران، سأكتب على وجوه الأطفال."

سرت همهمة بين الناجين، كأن صوتها أيقظ فيهم شجاعة دفينة.

أحد الأطفال تقدم وقال للضابط:

– "حتى لو رحلتنا، سنعود. نحن هنا مثل الحجارة."

للحظة، بدا الضابط مرتبكًا أمام هذا التحدي الصامت.

رفع يده مترددًا، ثم أسقطها وقال بلهجة قاسية:

– "احذروا... إذا حاولتم أن تنشروا الفوضى، سنعود."

انسحبت السيارات العسكرية ببطء، تاركة غبارًا أثقل من الدخان.

جلس الناجون في صمت، العيون تتساءل: هل كتبوا بداية النهاية، أم بداية الحياة؟

قال يوسف وهو يلتقط نفسًا عميقًا:

– "هذا كان امتحاننا الأول. لقد حاولوا أن يكسروا نواتنا، لكننا صمدنا. ربما لا نملك السلاح، لكن لدينا ما هو أخطر: الإصرار على البقاء."

رفعت سلمى دفترها وقالت:

– "لنكتب الليلة أن الانفجار لم ينتهِ، لكنه بدأ يتحول إلى قصة. وكل قصة تُكتب، تُصبح مقاومة.

لفصل ٣٦ – الحياة من تحت الرماد

لم يكد الليل يحلّ، حتى اجتمع الناجون حول النار كما اعتادوا، لكن هذه المرة لم يكن اللقاء للبكاء أو الخوف، بل لوضع حجر الأساس لحياة جديدة.

قال يوسف وهو ينظر إلى الوجوه المرهقة:

– "لقد اختبرونا أمس، وحاولوا أن يمحونا. لكننا ما زلنا هنا. إذا أردنا البقاء فعلينا أن ننظّم حياتنا. لا ننتظر من أحد شيئًا، نحن بأنفسنا نصنع غدنا."

أومأت سلمى برأسها وأضافت:

– "لن نسمح أن يكون الرماد قبرنا. يجب أن نعيد المعنى لأطفالنا. المدرسة ليست جدرانًا، هي كلمة. المخبز ليس فرنًا، هو تقاسم. والبيت ليس سقفًا، بل قلب يجمع."

بدأوا بتوزيع الأدوار:

العجوز أبو طلال الذي كان نجارًا قرر أن يصنع من الخشب المحترق مقاعد وألواحًا للكتابة.

ليلى، الشابة التي فقدت زوجها، أخذت على عاتقها تعليم الأطفال في العراء، تقرأ لهم الحروف وتكتب على الرمل كما لو كان دفترًا سماويًا.

بعض الرجال جمعوا الحبوب المدفونة تحت الركام، طحنوها بحجارة ثقيلة، وأقاموا أول خبز جماعي... كان طعمه مُرًّا بالرماد، لكنه أعاد للجميع شعور المشاركة.

في وسط الساحة، رفع يوسف يده وقال:

– "من هذه اللحظة، لا أحد فينا جائع وحده، ولا أحد حزين وحده. نحن عائلة، نحن مدينة صغيرة فوق جراح مدينة كبيرة."

أمسكت سلمى دفترها وكتبت:

"اليوم وُلدت أول مدرسة بلا جدران، وأول مخبز بلا فرن، وأول بيت بلا سقف. الانفجار دمّرنا، لكننا بدأنا نكتب قصيدة جديدة على أطلاله."

في المساء، جلس الأطفال يرددون أناشيد بسيطة علمتهم إياها ليلى، وصوتهم الضعيف ارتفع في فضاء المدينة المدمّرة مثل صلاة جماعية.

أما الكبار، فقد أغمضوا عيونهم لأول مرة منذ الكارثة، وفي قلوبهم بذرة أمل صغيرة:

أن الحياة، مهما انكسرت، تعرف كيف تُعيد تشكيل نفسها.

الفصل ٣٧ – العلامة

كانت الليلة باردة على نحو غير مألوف. النار التي أشعلوها بالكاد تبعث دفئًا، والريح كانت تجول بين البيوت المهدمة كأنها تبحث عن أرواحٍ ضائعة.

جلس يوسف قرب الأطفال ليستمع إلى أناشيدهم، حين انطلقت فجأة صرخة من جهة الخراب. هرع الجميع، ليجدوا امرأةً مسنّة جاثية على الأرض، تحتضن شيئًا صغيرًا بين ذراعيها.

كان طفلًا وليدًا، يصرخ لأول مرة في وجه المدينة.

ارتجّت القلوب.

قالت سلمى والدموع تترقرق في عينيها:

– "في قلب كل هذا الموت... يولد طفل!"

لكن الفرح لم يدم طويلًا، إذ سمعوا في الأفق صوت محرّكات ثقيلة.

عادت السيارات العسكرية التي حذّرتهم من قبل. هذه المرة لم يكن الجنود وحدهم، بل معهم وفد من الغرباء بملابس مدنية، يلتقطون الصور ويكتبون ملاحظات.

وقف الضابط نفسه الذي واجهوه سابقًا، نظر إليهم بحدة وقال:

– "ألم نحذركم؟ لقد قررتم أن تبنوا حياة هنا... والآن هناك من يريد أن يعرف قصتكم."

تقدمت سلمى خطوة، رفعت الطفل نحو السماء وقالت:

– "هذا هو جوابنا. نحن لا نحمل سلاحًا ولا شعارًا. نحن نحمل حياة جديدة خرجت من تحت الركام. اقتلونا إن شئتم... لكن كيف تقتلون طفلاً؟"

ارتبك الجمع. بعض الجنود خفضوا أعينهم، والغرباء أخذوا مزيدًا من الصور.

يوسف همس لنفسه:

"ربما هذه ليست نهاية التهديد... لكنها بداية شهادة. لقد صارت قصتنا تُرى بعينٍ أخرى."

في تلك اللحظة، فهم الناجون أن الانفجار لم يدمّر مدينتهم وحدها، بل فتح نافذة على العالم.

لكن السؤال الذي ظلّ معلّقًا في الهواء:

هل ستكون هذه النافذة بابًا للخلاص... أم بابًا لخطرٍ أعظم؟

الفصل ٣٨ – بين يدين

وقف الجميع مشدودين أمام المشهد:

جندي يشيح بوجهه كي لا يرى دموع الطفل، وآخر يبتسم بخجل، بينما الضابط يزداد صرامة في نبرته، كأنه يخشى أن يتفتت سلطانه أمام بكاء وليد خرج من رحم الخراب.

تقدّم أحد الغرباء من الوفد، رجل أشيب بلغة عربية مكسّرة، وقال:

– "قصتكم يجب أن تُروى... العالم لا يعرف عنكم شيئًا."

أضاءت الكلمات وجوه الناجين للحظة قصيرة، كأنهم وجدوا يدًا تمتد إليهم من خلف الحصار.

لكن الضابط صرخ بحدة:

– "لا أحد يتكلم! هذه الأرض ليست ساحة روايات... إنها منطقة عسكرية."

شدّ يوسف قبضته وقال بهدوء:

– "الأرض ليست عسكرية... الأرض أمّ. ومن رحمها يولد الأطفال ولو غطتها القنابل."

ارتفعت الهمسات بين الناجين. سلمى ضمّت الطفل إلى صدرها وكتبت في دفترها:

"بين يدين نتأرجح: يد تريد أن تطمسنا، ويد تحاول أن ترفعنا. لكننا سنبقى واقفين."

انسحب الوفد الأجنبي على عجل تحت ضغط الجنود، تاركًا خلفه وعدًا غامضًا:

– "سنعود... ونحمل أصواتكم."

حين حلّ الليل، اجتمع الناجون من جديد حول النار، لكن هذه المرة لم يكن النقاش عن الخوف أو الجوع، بل عن الخطوة التالية.

قال يوسف:

– "إذا أرادوا إسكاتنا، يجب أن نصبح أعلى صوتًا."

وأضافت سلمى:

– "الكلمة أقوى من الرصاصة حين تؤمن بها قلوب كثيرة. هذا الطفل ليس ابن امرأة واحدة... إنه ابننا جميعًا، وابن مدينتنا."

تبادلوا النظرات، وشعروا أن الانفجار الذي دمّرهم صار أيضًا بداية لانفجار آخر:

انفجار الوعي، انفجار الكلمة، انفجار الإرادة.

الفصل ٣٩ – سر الدفتر

كان الليل ثقيلاً، والمدينة تئنّ كجسدٍ مثخن بالجراح.

جلس الناجون في حلقة ضوء ضئيلة حول النار، بينما ظلّ الظلام يحيط بهم مثل عدوّ صامت.

أخرجت سلمى دفترها، ذاك الذي صار صندوق أسرارهم وسلاحهم الوحيد. قلبت صفحاته ببطء، كأنها تلمس وجوه الشهداء المدونة هناك، ثم قالت:

– "هذا الدفتر ليس ملكي وحدي... إنه صوتنا جميعًا. وإذا بقي هنا، سيأتي يوم ويُصادرونه. يجب أن نُهرّبه خارج المدينة."

ساد الصمت.

نظر يوسف إليها بدهشة، ثم قال:

– "تهريبه؟ إلى أين؟ الجنود يحاصرون المداخل... والعين تلاحقنا حتى في صمتنا."

ابتسمت سلمى ابتسامة باهتة:

– "ليس هناك حصار كامل. دائمًا ثمة شق في الجدار، دائمًا ثمة طريق صغير لا يراه إلا من يؤمن به."

تدخل أبو طلال، النجار العجوز:

– "أعرف ممرًا قديمًا بين الصخور. كنا نستعمله في زمن الحصار الأول. ربما لا يعرفه الجنود بعد."

تبادلوا النظرات، وارتجف الحاضرون بين خوفٍ ورجاء.

اقترب طفل من النار وقال بصوت بريء لكنه حاد:

– "إذا خرج الدفتر، سنعيش. إذا بقي هنا، سنُنسى."

كان كلام الطفل كصفعة أيقظت الكبار.

أمسك يوسف بالدفتر، رفعه عاليًا وقال:

– "هذا سيكون رسالتنا إلى العالم. قد لا ينقذنا غدًا، لكنه سيحفظ أسماءنا من أن تضيع في الرماد."

تقرّر أن ينطلق يوسف وسلَمى مع الفجر، يحملان الدفتر عبر الممر الصخري، بينما يحمي البقية النار الصغيرة كي لا تنطفئ.

وعندما انفضّ الجمع، كتبَت سلمى على الصفحة الأخيرة قبل الرحيل:

"إذا لم نعد، فلتكن هذه الكلمات شاهدًا أننا كنا هنا... أننا لم نصمت... أننا قاومنا حتى بالحبر.

الفصل ٤٠ – الممر الصخري

مع أول خيوط الفجر، كان الرماد ما زال يغطي المدينة كغطاء كثيف، والبرد يعضّ أطراف الأجساد.

وقف يوسف وسلمى عند أطراف الساحة، يحملان حقيبة صغيرة تخفي بين طياتها الدفتر.

لم يكن الدفتر مجرد أوراق، بل كان قلب المدينة، ذاكرة الناجين، وصوت من لا صوت له.

أشار لهم أبو طلال بيده المرتجفة نحو الجبل:

– "هناك، خلف الصخور، ممر قديم. اتبعاه... ولا تلتفتا."

بدأت الرحلة.

كانت خطواتهما بطيئة وحذرة، كأنهما يسيران على حدّ السكين.

المدينة من خلفهما بدت جرحًا مفتوحًا، ومن أمامهما انفتح طريق ضيق، يبتلع الضوء ويبتلع الخوف معًا.

بينما يتقدمان، سمعا فجأة هدير محرّكات في الأفق.

اقتربت سيارات عسكرية، تتقدمها أصوات أوامر حادة.

همست سلمى:

– "لقد اكتشفوا الأمر... سيبحثون عنا."

شدّ يوسف على يدها وقال:

– "علينا أن نكمل، حتى لو كان الثمن حياتنا."

اختبآ خلف صخرة عالية حين مرت دورية قريبة.

كانت أنفاسهما تتسابق مع دقات قلب الأرض، وكل حركة قد تكشفهما.

الجنود توقفوا برهة، نظروا حولهم، ثم تحركوا مبتعدين.

تنفست سلمى بعمق، وأخرجت الدفتر من الحقيبة، قبلته كطفلٍ حديث الولادة وقالت:

– "حتى لو متنا هنا، يكفي أن يصل هذا الدفتر."

يوسف أمسك بالدفتر معها، عيونه تلمع رغم الغبار:

– "لن نموت عبثًا. سنترك وراءنا ما هو أقوى من الحياة نفسها: الشهادة."

واصلا السير في الممر الضيق، بين الصخور التي بدت كأنها تحرسهما، حتى بدا الأفق فجأة أكثر اتساعًا، والضوء أكثر وضوحًا.

لكن خلفهما، في المدينة، كان الجنود قد بدأوا يشكّون... وقرروا أن يفتشوا كل درب، وكل ممر

الفصل ٤١ – المطاردة

كان الممر الصخري ضيقًا، والريح تصفر فيه كأنها تنذر بالخطر.

يوسف يتقدم بحذر، وسلمى خلفه تمسك بالدفتر كأنه قلبها، وكل خطوة تشبه صرخة مكتومة.

فجأة، اخترق الصمت صوت صفاراتٍ عسكرية.

الجنود اكتشفوا الممر.

ارتجّت الأرض تحت وقع أقدامهم، وصدى الأوامر يتردد في الجبال:

– "فتشوا الصخور! لا تتركوا أحدًا يهرب!"

أمسك يوسف بيد سلمى بقوة وقال:

– "اركضي!"

ركضا بين الصخور، يتعثران بالحجارة الحادة، لكن الخوف صار وقودًا.

رصاصة ارتطمت بالجدار الحجري قربهما، فتطاير الغبار في وجهيهما.

شهقت سلمى، لكنها واصلت الركض وهي تردد في داخلها: "لن يسقط الدفتر... لن يسقط."

عند منعطفٍ ضيق، سقط يوسف على ركبتيه بعدما انزلقت قدمه.

صرخت سلمى، عادت بسرعة وساعدته على النهوض، رغم أن أصوات الجنود صارت قريبة جدًا.

قال بصوت متقطع:

– "لو أمسكونا... خذي الدفتر وحدك... لا تدعيه يقع بأيديهم."

نظرت إليه بعينين دامعتين وقالت بحزم:

– "لن أتركك ولن أتركه. إما نصل معًا... أو نموت معًا."

واصلوا الركض حتى لمحوا فجأة ضوءًا يتسرب من شق بين الصخور.

كان مخرجًا ضيقًا، لكنه يقود إلى وادٍ أوسع خارج حدود المدينة.

اندفع يوسف أولاً، ثم مدد يده ليساعد سلمى على العبور.

لكن الجنود كانوا خلفهم تمامًا.

أحدهم صاح:

– "هناك! أوقفوهما!"

أطلقوا رصاصًا آخر، ارتطم بالحجارة، فتناثر الشرر في الهواء.

لكن في اللحظة ذاتها، هبت عاصفة ترابية مفاجئة، غطّت المكان بسحابة كثيفة من الغبار.

تعالت صيحات الجنود وهم يتخبطون في العتمة، بينما يوسف وسلمى تسللا عبر المخرج كطيفين يبتلعهما الضوء.

حين وصلا إلى الوادي، جلسا يلهثان، وابتسم يوسف رغم الجروح:

– "السماء نفسها تآمرت لإنقاذنا."

فتحت سلمى الدفتر على صفحة فارغة وكتبت:

"اليوم كتبنا بالتراب... أن الحياة أقوى من الرصاص."

الفصل ٤٢ – الغرباء

كان الوادي ممتدًا بلا نهاية، صامتًا إلا من صفير الريح التي بدت وكأنها تحرس الهاربين.

جلس يوسف وسلمى على صخرة، يلتقطان أنفاسهما المتقطعة، والدفتر بينهما أشبه بطفل يتيم أنقذاه من الموت.

لكن فجأة، سمعا وقع خطوات بشرية.

توجّسا أول الأمر، ظنّا أن الجنود لحقوا بهما، حتى ظهرت من بين الأشجار ثلاث شخصيات بملابس مدنية: رجل أشيب، امرأة أربعينية تحمل حقيبة كبيرة، وشاب يحمل كاميرا على كتفه.

قال الرجل بصوتٍ منخفض لكنه مطمئن:

– "لا تخافا... لسنا جنودًا. نحن من الوفد الذي زاركم بالأمس. كنا نبحث عنكما."

تبادلت سلمى ويوسف النظرات، ثم سألت بحدة:

– "ولماذا تتبعاننا؟ هل أنتما عين أخرى للسلطة؟"

ابتسمت المرأة وأخرجت بعض القوارير الصغيرة من حقيبتها:

– "نحن أطباء متطوعون... جئنا بالدواء والماء. وسمعنا عن دفتركما."

ارتجفت يد سلمى وهي تضم الدفتر إلى صدرها:

– "هذا ليس دفترًا عاديًا... إنه حياتنا."

اقترب الشاب بالكاميرا وقال بحماس:

– "ولهذا السبب بالضبط نبحث عنكما. قصتكم يجب أن تُنقل، أن تُصوَّر، أن تُسمَع في كل مكان."

صمت يوسف طويلًا قبل أن يقول:

– "الكلمات هنا خطر... قد تكون حياة أو موتًا. إذا خرجت من حدود المدينة، فلن تعود كما هي."

أجابت المرأة:

– "صحيح... لكنها حين تخرج ستصير سلاحًا، سلاحًا لا يستطيعون مصادرته."

شعر يوسف للحظة أن القدر يمدّ له يدًا ثانية، يدًا مختلفة عن يد العاصفة الترابية التي أنقذتهم قبل ساعات.

همس لسلمى:

– "ربما هذه هي اللحظة التي كنا ننتظرها... أن نُسلّم شهادتنا."

نظرت سلمى إلى الغرباء مطولًا، ثم فتحت الدفتر على صفحة فارغة، وكتبت ببطء:

"هذا الدفتر خرج من تحت الركام... ليُكتب للعالم."

رفعت رأسها وقالت:

– "خذوه... لكن تذكّروا: هذه ليست قصتنا وحدنا، بل قصة مدينة كاملة. احملوها بأمانة."

مدّ الرجل يديه ليأخذ الدفتر، لكن يوسف قال بحزم:

– "سنسير معكم. الدفتر ليس ورقًا فقط... إنه دمنا."

ابتسم الشاب وهو يجهز كاميرته:

– "إذن فلنكتب الفصل الجديد... معًا."

الفصل ٤٣ – الخروج

مع بزوغ شمس جديدة، بدا الوادي أقل قسوة، وكأن الضوء يفتح دربًا لم يكن موجودًا في الليلة الماضية.

وقف يوسف وسلمى إلى جانب الغرباء الثلاثة، وكلٌّ منهم يحمل حقيبته الصغيرة.

الدفتر كان في حقيبة سلمى، لكنه بدا أثقل من كل الحقائب الأخرى، لأنه لم يحمل أوراقًا فقط، بل أرواحًا وصرخات وذاكرة مدينة كاملة.

قال الرجل الأشيب وهو ينظر إلى الأفق:

– "الطريق طويل... وهناك حواجز عسكرية. لكننا نعرف طرقًا جانبية. إذا تعاونّا، سنصل إلى الحدود."

ارتبكت سلمى، شدّت على يد يوسف وهمست:

– "هل نترك البقية؟ هل نترك النار الصغيرة التي تحرس أحلامهم؟"

أجابها يوسف بصوت مبحوح:

– "نحن لا نتركهم... نحن نحملهم معنا. كل اسم، كل قصة مكتوبة هنا، ستخرج من أفواهنا كما خرجت من قلوبهم."

بدأت الرحلة.

مرّوا بين وديان صخرية، صعدوا مرتفعات وعرة، وكلما اقتربوا من قرى صغيرة أو نقاط تفتيش، كان الغرباء يغيّرون المسار.

الطريق كان أشبه برقصة موت، خطوة في النور وأخرى في الظل.

في إحدى الاستراحات، جلسوا جميعًا يلتقطون أنفاسهم.

أخرجت المرأة قنينة ماء، ناولتها لسلمى وقالت:

– "لقد فقدتُ أنا أيضًا مدينة ذات يوم... لكنها لم تمت تمامًا، لأنها عاشت في كلمات الناجين."

ابتسمت سلمى بعينين دامعتين:

– "إذن نحن نكرر المعجزة."

يوسف كان يراقب الشاب وهو يلتقط صورًا للرحلة.

قال له:

– "احذر... الصورة قد تقتل مثل الرصاصة إذا وقعت في يدٍ خاطئة."

أجابه الشاب بثقة:

– "لكنها قد تحيي أيضًا. كل صورة هنا شهادة."

حين مالت الشمس إلى الغروب، لمحوا في الأفق خطًا من الأسلاك الحديدية، وراءه علم يرفرف.

توقف الجميع، شعروا بارتعاشٍ غريب.

قال الرجل الأشيب بصوت متهدج:

– "ها هي الحدود... خلفها قد تبدأ قصة جديدة، أو خطر جديد."

وضعت سلمى يدها على الدفتر، ثم رفعت عينيها نحو يوسف:

– "هل نحن مستعدون لأن نترك مدينتنا وراءنا؟"

أجابها يوسف بعد صمت طويل:

– "لن نتركها... سنحملها في كلماتنا. الانفجار دمّر الجدران، لكنه فتح لنا طريقًا. فلنمشِ."

ومع آخر شعاع للشمس، عبروا جميعًا الوادي نحو الحدود، كأنهم يعبرون من فصلٍ إلى فصلٍ جديد في كتاب الحياة

الفصل ٤٤ – الحاجز

كانت الحدود أمامهم، خطًا من الأسلاك والحديد المسنّن، وحاجزًا عسكريًا يقف كحارس الموت.

الجنود مصطفون، عيونهم كالسكاكين، وأيديهم مشدودة إلى البنادق.

بين الناجين والحرية مسافة قصيرة، لكنها بدت أثقل من الجبال.

شدّت سلمى حقيبتها إلى صدرها، حيث يختبئ الدفتر. شعرت وكأن قلبها ينبض بين الصفحات.

همس يوسف:

– "الآن لحظة الحقيقة. إما أن نمرّ... أو نصبح قصة أخرى تُدفن تحت الركام."

اقترب الرجل الأشيب من الضابط المناوب عند الحاجز، قدّم أوراقًا مزوّرة وألقى جملة قصيرة بلهجة رسمية:

– "وفد إغاثة... عائد من مهمة إنسانية."

تفحّص الضابط الأوراق ببرود، ثم رفع نظره إلى المجموعة.

توقفت عيناه عند يوسف وسلمى، ارتاب في وجهيهما المغبرَّين، في الحقيبة التي لا تفارقها سلمى.

قال بحدة:

– "افتحي الحقيبة."

تجمدت ملامح سلمى.

شعرت أن الهواء انقطع من حولها.

يوسف تقدّم خطوة ليحجبها بجسده، وقال بصوتٍ واثق رغم ارتعاشه:

– "إنها تحمل دواءً وملابس... لا شيء غير ذلك."

لكن الضابط مد يده، انتزع الحقيبة بعنف، وبدأ يفتشها أمام الجميع.

تسارعت أنفاس سلمى، وتوقفت القلوب.

حين كاد يلمس الدفتر، انطلقت فجأة أصوات إطلاق نار بعيد، من الجهة الأخرى للحاجز.

ارتبك الجنود، ركض بعضهم نحو مصدر الصوت.

في اللحظة ذاتها، استغلّ الرجل الأشيب الفوضى، مد يده بسرعة، وأغلق الحقيبة قبل أن ينكشف سرها.

قال للضابط بلهجة قاسية:

– "إن أردتم تعطيلنا أكثر، فسجّلوا اعتراضًا رسميًا. لكن لا وقت لدينا."

الضابط نظر إليه مترددًا، ثم لوّح بيده بعصبية:

– "انصرفوا!"

تحركت المجموعة ببطء عبر الحاجز، وكل خطوة كانت كأنها تعبر جسرًا فوق الهاوية.

وحين تجاوزوا السلك الحديدي، تنفست سلمى بحرية لأول مرة منذ الانفجار.

رفعت الدفتر عاليًا وقالت بصوتٍ يختلط بالدموع:

– "لقد عبرنا... لم نعبر نحن فقط، بل عبرت قصتنا معنا."

يوسف وضع يده على كتفها وقال:

– "الآن يبدأ الجزء الأصعب... أن نروي."

الفصل ٤٥ – الشهادة

خلف الأسلاك، بدت الأرض مختلفة.

لم تكن أقل قسوة، لكنها لم تكن تحت قبضة البنادق ذاتها.

تنفس يوسف للمرة الأولى بعمق، كأن رئتيه تحررتا من حصار طويل.

أما سلمى، فوضعت يدها على حقيبتها، على الدفتر، كمن يلمس قلب مدينة كاملة ما زال ينبض.

قادهم الرجل الأشيب نحو مخيم إغاثة صغير، نُصبت فيه خيام بيضاء تحمل شعارات منظمات إنسانية.

النساء والأطفال يتحركون بين الطوابير، والأطباء يسعفون الجرحى.

لكن ما لفت نظر يوسف وسلَمى كان خيمة كبيرة في الوسط، تزدحم عندها كاميرات وصحفيون.

اقتربت المرأة الأربعينية منهم وقالت:

– "هنا تبدأ قصتكم الجديدة. لقد أخبرنا العالم أن هناك ناجين... والآن عليكم أن تتكلموا."

ارتجف قلب سلمى.

همست ليوسف:

– "نكتب... نعم. لكن أن نتكلم؟ أن ننكشف؟"

أمسك يوسف يدها وقال:

– "لقد عبرنا النار. لم يعد الخوف يحكمنا. إذا صمتنا الآن، سيموت الدفتر وهو حي."

في داخل الخيمة، جلسوا أمام طاولة خشبية قديمة، وحولهم عدسات الكاميرات.

فتح يوسف الحقيبة ببطء، أخرج الدفتر ووضعه على الطاولة.

فتحته سلمى على الصفحة الأولى، حيث الأسماء والصرخات والذكريات، وقالت بصوتٍ مبحوح لكنه ثابت:

– "هذا الدفتر خرج من تحت الركام. هنا أسماء من ماتوا بلا قبور، وأصوات من صرخوا ولم يسمعهم أحد. هذا ليس كتابًا... هذا نحن."

ساد صمت ثقيل، ثم انطلقت الأسئلة من الصحفيين.

يوسف أجاب بهدوء:

– "الانفجار دمّر جدراننا، لكن لم يستطع أن يدمر إنسانيتنا. نحن لم نخرج لنطلب شفقة، بل لنقول للعالم: لا تتركوا مدنكم تسقط في صمت كما سقطت مدينتنا."

في زاوية الخيمة، كان الشاب بالكاميرا يوثق اللحظة.

ابتسم وهو يهمس:

– "اليوم... بدأت قصتكم تصل أبعد من البنادق."

رفعت سلمى الدفتر بيديها وقالت كأنها تُقسم:

– "لن نسمح أن يُدفن الانفجار في النسيان. سيبقى حاضرًا في كل كلمة، حتى يولد من الرماد عالم يرفض أن يكرر المأساة."

وخارج الخيمة، بدا المخيم وكأنه ينصت أيضًا، كأن الأطفال والنساء والجرحى جميعهم وجدوا في الكلمات حياة ثانية

الفصل ٤٦ – الصدى

لم تمضِ أيام قليلة حتى صار الدفتر حديث المخيم بأكمله.

الصحفيون تناقلوا كلماته، المنظمات ترجمت صفحاته، وصور يوسف وسلمى تصدرت نشرات الأخبار.

كانت قصتهم تُروى بلغات كثيرة، لكن جوهرها واحد:

"مدينة احترقت... وناجون كتبوا رمادها بالحبر."

في البداية، شعر يوسف بالفخر.

كان يرى الأطفال يقتربون من سلمى، يسألونها أن تكتب أسماءهم في الدفتر الجديد الذي بدأته.

شعر أن ما كان مجرد صمت ووجع صار حياة تتوسع.

لكن الفرح لم يدم طويلًا.

جاءت الأخبار من الداخل: السلطات اعتبرت الدفتر "خيانة"، وأصدرت أوامر بملاحقة كل من ذُكر اسمه فيه.

أُحرقت بيوت من بقي في المدينة، واعتُقل بعض الأقارب.

جلس يوسف قرب النار في المخيم، رأسه بين يديه، وقال بصوتٍ مبحوح:

– "كأننا أشعلنا نارًا أخرى... هل أنقذناهم أم سلمناهم للموت؟"

سلمى وضعت يدها على كتفه وقالت:

– "لا تلُم نفسك. كانوا سيموتون بالصمت قبل الرصاص. على الأقل الآن يعرف العالم وجوههم."

لكنها لم تستطع منع دموعها من الانسياب.

كتبت في دفترها الجديد:

"الصدى جميل... لكنه قد يُحرق أكثر من الانفجار نفسه."

في اليوم التالي، جاء رجل من منظمة دولية ليخبرهما:

– "قصتكما أصبحت قضية عالمية. لكن هذا يعني أنكما في خطر. هناك من يلاحقكما، وهناك من يريد استغلالكما."

نظر يوسف إلى سلمى مطولًا.

قال:

– "لقد عبرنا الحاجز، والآن نواجه جدارًا جديدًا. العالم واسع، لكنه ليس أكثر رحمة."

أجابت سلمى وهي تضم الدفتر:

– "إذا كان علينا أن ندفع الثمن، فلندفعه. لكننا لن نصمت بعد الآن. حتى لو خسرنا حياتنا، كسبنا صوتنا."

وفي الخارج، كان الأطفال يرددون أسماءهم بصوتٍ عالٍ، كأنهم يتعلمون أن الذاكرة نفسها سلاح

الفصل ٤٧ – المنبر

وصلت الدعوة في رسالة قصيرة:

"نرجو حضوركم لتقديم شهادتكم أمام المجلس الدولي."

قرأها يوسف بصوتٍ مرتجف، بينما سلمى كانت تضم الدفتر كمن يتهيأ لوضع طفلٍ بين يدي قاضٍ.

سافرا أيامًا عبر طرق محمية، حتى وصلا إلى مدينة كبرى لم تعرف الحرب.

ناطحات الزجاج تعانق السماء، والناس يمشون بلا خوف، كأنهم يعيشون في كوكب آخر.

شعر يوسف أن الخطوة الأولى على أرصفة هذه المدينة أثقل من كل رحلته عبر الممر الصخري.

دخلوا قاعة ضخمة، جدرانها مغطاة بأعلام العالم.

جلس المندوبون على مقاعد مرتبة، وعيونهم الباردة تراقب الداخلين.

وقف يوسف وسلمى في الوسط، وإلى جانبهما الدفتر.

كان الصمت في القاعة أثقل من دويّ الانفجار.

أعطيت الكلمة ليوسف.

أخذ نفسًا عميقًا وقال:

– "أيها السادة... لم آتِ لأروي قصة موت. جئت لأروي كيف يمكن للحياة أن تنهض من تحت الركام. الانفجار دمّر مدينتي، لكنه كشف لنا أن الإنسان بلا كرامة لا يساوي شيئًا. نحن لم نطلب صدقة، نطلب فقط أن يُسمع صوتنا."

ثم أعطى الكلمة لسلمى.

فتحت الدفتر ببطء، وبدأت تقرأ:

– "هذه أسماء... ليست أرقامًا. هذا علي، الذي قُتل وهو يحاول إنقاذ أخته. هذه فاطمة، التي ماتت وهي تكتب رسالة لم تُقرأ. هذا طفلٌ وُلد بعد الانفجار، صرخته الأولى كانت أبلغ من كل كلماتكم."

سكتت لحظة، ثم رفعت رأسها:

– "أنتم تملكون القوة لوقف الانفجارات القادمة. لكن إن صمتم، ستكونون شركاء في كل رصاصة."

انحنى بعض المندوبين في مقاعدهم، آخرون تبادلوا نظرات صامتة، بينما دوّت في القاعة تصفيقات متفرقة بدأت تتسع شيئًا فشيئًا.

كان الصدى هذه المرة أوسع من المخيم، أبعد من الحدود، أقوى من الخوف.

لكن يوسف تمتم في داخله:

"الكلمات وصلت... فهل سيصل الفعل؟"

الفصل ٤٨ – ما بعد الكلمة

لم يكد يوسف وسلمى يغادران القاعة حتى غمرتهما عدسات الكاميرات وأسئلة الصحفيين.

كانت الكلمات التي ألقياها قد خرجت من جدران المجلس، وسافرت عبر الشاشات إلى ملايين البيوت.

لأول مرة، سُمعت قصة الانفجار خارج حدود المدينة.

في المخيمات، صفق الأطفال حين شاهدوا سلمى ترفع الدفتر، وهتف النساء بأسماء ذويهم التي قُرئت على الهواء.

لكن في المدينة المدمرة، لم يكن الصدى مرحبًا به.

وصلت أوامر جديدة: "اعتقال كل من يُشتبه أنه على صلة بالدفتر."

بدأت المداهمات، وامتلأت الزنازين أكثر مما كانت.

جلس يوسف في غرفته بالفندق المؤقت، يحدق من النافذة إلى أضواء المدينة الباذخة.

قال بمرارة:

– "الكلمات وصلت، لكن الدم ما زال يسيل. هل صنعنا معجزة أم جرحًا أكبر؟"

وضعت سلمى يدها على كتفه، وعيناها دامعتان لكنها ثابتة:

– "المعجزات لا تأتي بلا ألم. إذا كان صوتنا قد أيقظ العالم، فعلى العالم أن يتحمل مسؤوليته الآن."

لكن الخطر لم يكن بعيدًا.

في الليلة ذاتها، طرق أحد المتطوعين باب غرفتهما على عجل، وهمس:

– "هناك من يتتبعكما. صوركما صارت على قوائم المطلوبين. بعض الجهات لا تريد لصوتكما أن يستمر."

ساد صمت ثقيل.

يوسف شدّ على يد سلمى وقال:

– "إذن نحن لم نخرج من دائرة الخطر. الانفجار يلاحقنا أينما ذهبنا."

رفعت سلمى الدفتر، وضعته على الطاولة وقالت ببطء:

– "إذا كنا نحن الهدف... فليكن. لكن هذا لن يموت بعد الآن. لقد صار ملك العالم."

في الخارج، كانت شاشات التلفاز تعرض وجهيهما باستمرار، بين من يصفهما بالأبطال، ومن يتهمهما بالخيانة.

وعرفا أن طريقهما لم يعد ملكهما وحدهما... بل صار ملك كل من اختار أن يصدق أن الكلمة أقوى من الرصاص

الفصل ٤٩ – الرصاصة والصرخة

كانت الليالي في المدينة الغريبة باردة، لكن البرد الذي شعر به يوسف وسلمى لم يكن من الطقس.

كان من العيون التي تلاحقهما، من الوجوه التي تختفي بسرعة حين يقتربان، من الصمت المريب الذي يسكن الممرات.

في إحدى الأمسيات، وبينما كانا عائدين من لقاء مع منظمة حقوقية، دوى صوت رصاصة.

اخترقت الجدار قرب رأسيهما، وتناثر الزجاج من نافذة المتجر المهجور.

صرخت سلمى، بينما جذبها يوسف أرضًا، يحميها بجسده.

ركض المارة مذعورين، ولمح يوسف ظلًّا يهرب في زقاق ضيق.

قال وهو يلهث:

– "لقد بدأوا... يريدون إسكاتنا."

لكن قبل أن يستسلم الخوف، ارتفع صوت من بعيد، صوت امرأة عجوز من اللاجئين في المخيم، كانت قد لحقت بهما لتعيد بعض الأوراق التي نسياها:

– "لن تسكتوا! نحن معكم!"

تجمّع حولهما لاجئون آخرون، رجال ونساء وأطفال.

وقفوا كجدار بشري بينهم وبين المجهول، يصرخون بصوت واحد:

– "لن تُسكتوا الكلمة!"

وصلت الشرطة متأخرة، لكن المشهد كان قد حُفر في ذاكرة الحاضرين.

الكاميرات التي التقطت اللحظة جعلت منها رمزًا: رصاصة أرادت أن تُطفئ صوتًا، فقابلتها صرخة مئات ترفض الصمت.

جلس يوسف بعد الحادثة، يضم سلمى التي كانت ترتجف، وقال بمرارة ممزوجة بالأمل:

– "كلما اقتربنا من الضوء، اشتدّ الرصاص. لكن ربما هذا هو الدليل أننا على الطريق الصحيح."

فتحت سلمى الدفتر، وكتبت على الصفحة الجديدة:

"اليوم أطلقوا النار على الكلمة، لكن الكلمة ردّت بصوت الجموع.

الفصل ٥٠ – الحماية

بعد محاولة الاغتيال، لم يعد يوسف وسلمى مجرد شاهدين، بل صارا رمزًا حيًا يتصدر نشرات الأخبار.

انتشرت صور الجموع التي حمتهم في كل مكان، وتحولت الرصاصة الفاشلة إلى صرخة عالمية ضد إسكات الحقيقة.

في اليوم التالي، استُدعيا إلى مقر منظمة دولية بارزة.

جلس أمامهما مسؤول رفيع المستوى، نظر إليهما بجدية وقال:

– "قصتكما لم تعد قصتكما وحدكما. الدفتر أصبح وثيقة تُتداول بين الحكومات. هناك ضغط عالمي لفتح تحقيق رسمي في ما جرى لمدينتكما."

ارتجف يوسف، لم يصدق أن الكلمات التي كتبت بين الرماد صارت الآن على طاولة قضاة ودبلوماسيين.

قال بصوت متردد:

– "لكن التحقيقات قد تأخذ سنوات... وأهلنا ما زالوا يعانون الآن."

أجاب المسؤول بهدوء:

– "لهذا السبب نعرض عليكما الحماية. قد تُنقلان إلى بلد آخر، تُمنحان إقامة آمنة، لتستمرا بعملكما من دون خوف."

تبادلت سلمى ويوسف النظرات.

قالت سلمى:

– "نحن لا نبحث عن ملجأ شخصي. ما يهمنا هو أن يبقى صوت مدينتنا حيًا، وأن لا يُدفن أهلها في صمت."

ابتسم المسؤول ابتسامة باهتة:

– "أحيانًا، لحماية الصوت، علينا أن نحمي الحامل أولًا. إذا سقطتما، يسقط معكما الدفتر."

في تلك الليلة، جلس يوسف وسلمى في شرفة الفندق المؤقت.

قال يوسف وهو ينظر إلى الأفق:

– "العالم يسمعنا الآن... لكن هل سيتحرك؟ أم أن أصواتنا مجرد عنوان عابر في الصحف؟"

أجابت سلمى وهي تمسك بالدفتر:

– "حتى لو كانوا يتاجرون بآلامنا، نحن زرعنا البذرة. والحقائق مثل الأشجار... قد يتأخر نموها، لكنها لا تموت."

كتبت في الصفحة الأخيرة من الدفتر:

"اليوم صار لنا سقف جديد: حماية لا نعرف إن كانت جدارًا أو منفى. لكننا نعرف أن قصتنا خرجت من الصمت... ولن تعود إليه."

الفصل ٥١ – المنفى الداخلي

الليل في المدينة الغريبة كان هادئًا أكثر مما يحتمل قلب يوسف.

جلس على حافة السرير، يحدق في النافذة حيث تتلألأ الأضواء بلا انقطاع، وتذكّر أن مدينته لم تعرف هذا اللمعان قط إلا حين كانت النيران تبتلعها.

قال بصوت مبحوح:

– "يعرضون علينا حياة جديدة... بيتًا آمنًا، هوية أخرى. لكن أي حياة هذه إذا كانت بعيدة عن ترابنا، عن قبور أهلنا؟"

سلمى كانت تقلب صفحات الدفتر ببطء، ثم أغلقت الغلاف بشيء من الحزم:

– "الحماية ليست نجاة... إنها نوع آخر من السجن. قد يحمون أجسادنا، لكن ماذا عن أرواحنا؟"

اقترب يوسف منها، جلس بجانبها وهمس:

– "أخاف أن نصبح شاهدين بلا مدينة. أن يتحول صوتنا إلى خطاب جميل في قاعات العالم، بينما يموت الناس هناك في صمت."

أجابته وهي تحدق في عينيه:

– "لكن إن متنا الآن، لن يبقى صوت أصلًا. نحن نحمل الدفتر، نعم... لكننا أيضًا نحمل مسؤولية أن نعيش."

صمت طويلاً.

ثم قال كمن يحدث نفسه:

– "المنفى ليس مكانًا... المنفى أن نعيش غرباء عن جراحنا."

كتبت سلمى جملة جديدة في الدفتر:

"الخوف لا يقتلنا فقط بالرصاص، بل أيضًا حين يغرينا بالهروب."

ثم أغلقت الصفحة، وضعت رأسها على كتفه وقالت:

– "لن نهرب. إذا كان لنا منفى، فلنكن منفيين في الخارج لكن أحرارًا في الداخل. الحرية أن نظل أوفياء لكلمتنا."

في تلك اللحظة، شعر يوسف أن الغربة لن تقتله ما دام الدفتر بين يديهما، وما دام هناك من يقرأ، من يسمع، من يصدق أن الرماد قد يورق يومًا

الفصل ٥٢ – الرسالة

في مساء غريب الهدوء، وصلت ورقة صغيرة مهرَّبة عبر قافلة مساعدات.

كانت مكتوبة بخطٍ متعرج على قصاصة ممزقة:

“نحن ما زلنا هنا. نحفر بأظافرنا لنبني مدرسة صغيرة بين الخراب.

أصواتكم وصلت، صارت لنا جدارًا.

لا تتوقفوا عن الكتابة... فنحن نقرأ حتى في الظلام.”

حين أنهى يوسف قراءة الرسالة، ارتجف صوته.

أما سلمى فبكت للمرة الأولى بدموع فرح، لا بدموع خسارة.

كتبت في الدفتر:

“لم يمت الداخل. النار ما زالت تضيء.”

وصلتهما أخبار أخرى، متناقضة.

في مدينتهم، بعض الناس رفعوا صور يوسف وسلمى كبطلين، وآخرون شتموهما كخونة.

قال يوسف وهو يتأمل صور المظاهرات:

– "هكذا هي الحقيقة دائمًا... لا توحّد الناس، بل تكشف وجوههم."

أجابت سلمى بابتسامة شاحبة:

– "لكن يكفينا أن نصف القلوب قد اختارت أن تصدّق. هذه بداية كافية."

الفصل ٥٤ – الطريق الجديد

دُعيا إلى مؤتمر في مدينة أوروبية أخرى.

ركبا الطائرة للمرة الأولى، ومعهما الدفتر كضيفٍ أعظم.

من النافذة، رأى يوسف الغيوم تتشكل مثل دخان انفجار بعيد.

تمتم لنفسه:

– "كأن الحرب تلاحقنا حتى في السماء."

أما سلمى، فأغلقت عينيها وقالت:

– "لكننا الآن نحن من نكتب المشهد... لا القنابل."

الفصل ٥٥ – إرث الرماد

في المؤتمر، لم يلقيا خطابًا طويلاً.

بل اكتفت سلمى بفتح الدفتر على صفحة الأسماء الأولى، وقالت:

– "هذا هو كتابنا، وهذه هي مدينتنا.

نحن لا نطلب إنقاذنا، بل أن تتعلموا كيف لا تتركون مدنكم تحترق كما احترقت مدينتنا."

ساد صمت ثقيل، ثم وقفت شابة من الجمهور وقالت:

– "أنتم لم تكتبوا قصتكم فقط... كتبتم قصتنا جميعًا."

الفصل ٥٦ – النهاية والبداية

في تلك الليلة، جلس يوسف وسلمى على شرفة الفندق.

المدينة الهادئة حولهما كانت تلمع، بينما في داخلهما ما زالت المدينة المحترقة حاضرة.

وضع يوسف يده على يد سلمى، وقال:

– "هل انتهت القصة؟"

أجابته وهي تبتسم لأول مرة بطمأنينة:

– "لا... القصص لا تنتهي. نحن فقط نسلمها لغيرنا ليكملوها."

أغلقت الدفتر برفق، ثم كتبت الجملة الأخيرة:

"انتقامي أن أعيش بكرامتي... وأن أترك للغد دفترًا لا يحترق."

رفعت رأسها نحو الأفق، حيث تلوح غيوم جديدة، وقالت:

– "وإذا جاء انفجار آخر... فلن يكون الصمت هذه المرة هو المنتصر.